
كلاب
السكك
كرم صابر
رواية
مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل

كلاب السكك

كرم صابر

رواية

إهداء

إلى كلبي «وافي» وقطتي «وحيدة»

ونهري الحزين

المؤلف : كرم صابر
رواية : كلاب السكك
الناشر : صفصافة للنشر والتوزيع
رقم الأيداع : ٢٠١٥/١٤٨٤٤
الترقيم الدولى : ٩٧٨-٩٧٧-٥١٥١٤-٤٩-١
الطبعة الأولى: يوليو ٢٠١٥

كرم صابر: أديب مصرى نشأ فى مدينة الوراق وقت أن كانت قرية يعمل أهلها بالزراعة قبل أن يدمجها الزحف العمرانى بالقاهرة، بدأ العمل بالمحاماة عام ١٩٨٩؛ نشر العديد من الأعمال السردية منها المتهم وأين الله ورائحة الأنوثة وعشق الحياة وفؤاد المدينة وطائر النسيان ومريم العذراء وكلاب السكك.

طبعة إليكترونية : ٢٠١٥

"مهيطل"

(١)

الأحصنة تتراقص بساحة الضريح احتفالًا بيوم مولده، النساء السمينات يجلسن أمام الحلل ويغرفن لطوب الأرض الفول النابت والحميض.

نادتني إحداهن بشفقة، وفعصت خصيتي بكلتا يديها، وسلّمتني رغيفًا مملوءًا بالأرز المسلوق.

تناولته بتلذذ، وسرت حائرًا حول الضريح، وسمعت المغني الذي أغلق عيونه، وداوي قلوب المريدين بغنائه: "مدد.. يا بنت بنت النبي.. مداد".

دخلت وسط الساحة الممتلئة بباعة الطرابيش، وعربيات البمب والمراجيح، وأصوات البشر الهاربين من جحورهم، لم أ نتبه لصوت الأطفال الذين جرّوني من ملابسي، لكني شعرت بخشونة يد الفران الذي لطعني على قفاي، فاستكملت سيري وسط البهجة التي تتطاير من عيونهم.

تسمرت أقدامي أمام القوادة التي وقفتْ بجوار خيمتها تعدِّد محاسن أوصاف بناتها، ليتني أمتلك المال ووجوه البشر، لأدخل من الستارة وأفجع فتياتها وفتيانها، الذين يدخنون الحشيش ويخرجون دخانًا أشبه بالرذاذ الذي أطلقته كلبتي منذ يومين في روحي.

سلمتني المرأة الممسوسة رغيفًا مملوءا باللحم، وملّست على ظهري قائلة: "نسيتني يا شيخ مهيطل ولا إيه؟!".

ارتابت من عيني، ودخلت وسط الحشود توزع أرغفتها آملة في الحصول على البركة.

الأمسيات الحائرة في المولد الذي لا ينام أهله إلا بعد صلاة الفجر، تعيد الحياة إلى قلبي، أسمع حكاياتهم عن نوادر الأنبياء ومعجزات الصِّدِّيقين، وأستعيد بطولات الرحمة وهزيمة القسوة، وأشعر بالأمل من جديد.

يأخذون قسطًا من النوم، ويعاودون الضجيج بعد الظهر ابتهاجًا بالحياة، لا يمتلك أحدهم طابونة ولا زريبة ولا مطعمًا حتى ينشغل عن الذكر، ويترك نسمات الحياة تهرب إلى المجهول خلف أوهام يمقتها خالق الكون.

نمتُ ليلتي وسط دفء المريدين غير عابئ بعيونهم المذهولة، وحين انطلق أذان الفجر جريت إلى الجامع، ودخلته من الناحية البحرية، استحممت بمياهه الدافئة، وسبّني الحاج "سعدون" لارتفاع صوتي بالغناء، فتح باب الحمام دون استئذان، ونظر ناحيتي في جنون، قائلًا: "يا كافر يا ا بن النجسة هتصحّي الناس من النوم".

صلاة الفجر هي الوحيدة التي أصليها مع "سعدون" الذي يوقظني من نومي، ويسحبني مع أحلامي حتى ميضته الواسعة لأتلقي الرزق.

خرجت من الحمام بعد صراخه، ووقفت بجواره في الصف، لم يكن عددنا يزيد على خمسة: "الفوال" و"سعدون" وأنا و"عليش" شيخ الجامع، وشخص غريب لا أعرفه، وأعتقد أنه راقبني ليلة الأمس وسط زحام المولد.

ارتبت من وجوده؛ لأنه لاطفني، وأمسك بيدي، وسألني عن اسمي.

سبقني الحاج "سعدون" على غير عادته إلى الطابونة، غير مبالٍ بملابس الرجل البيضاء وضحكته الناعمة.

استفرد الرجل بروحي، واحتضنني باكيًا، وقدم لي سندوتش عسل، أكلته بنهم، ونظرت إليه مستغربًا من عينيه المسالمتين.

وضع يده على ظهري وتحسس مؤخرتي، وحين شعر بالنشوة تدغدغ أعضائي، سحبني إلى الميضة، وأدخلني الحمام قائلًا: "اسمي شوقي متخافش"، شد ملابسي، وأدخل قضيبه الملتهب في مؤخرتي.

وشعرت بأنه لا فرق بين مؤخرته وفرج قطتي، كلاهما منتفخ وله فتحة، ومجرد لمسه يفجر بداخلي بركان السعادة.

الشيء الغريب أنني وجدت نفسي منتصبًا عن آخري، استجاب لعيوني ولف ظهري بيديه الناعمتين، وتحسس عضوي المنتفخ، وطلب مني وضعه في مؤخرته.

خرجت من الجامع، ولم أذهب كعادتي إلى الطابونة، وقضيت يومًا لا يُنْسَى بساحة المولد.

جلست بجوار الضريح أستمتع بأصوات البشر الباكية، ولم يسبني في هذا اليوم أي طفل، لم يضربني أحد، طبطب المداوي على ظهري، وتمددت على الحصير نائمًا بجوار "المهبولة" حتى المغرب، دون أن يزعجنا المارة، وحين استيقظت في المساء تسحبت هاربًا إلى حجرتي، واستكملت نومي وأحلامي بدوام ليالي الأنس.

تيقظت وسط الليل على مواء قطتي التي نزلت من السرير غاضبة، ووقفت على الأرض ونظرت بغيظ إلى ملابسي الرثة.

حاولت مداعبتها بعيوني، لكنها رفضت إشارتي، وأيقنت بمرارة حزنها.

نزلت وراءها من سريري، ورفعتها بين يدي، وأخذتها بخفة تحت اللحاف، وملَّست على ظهرها وداخل أذنها وتحت فكيها.

رأيتُ دموعها تنزل كبحر على كفي، تسحبت يدي تحت ذيلها، وداعبت فرجها كعادتي، فانفرجت أساريرها، وفتحت فمها وماءت كفاجرة عدة مرات، وأزاحت لباسي، استجبت لنحيبها ولامست بطرف قضيبي فتحتها حتى انفجرت من السعادة.

راقبت عيوني وبكت، وسمعت مواءها يحكي شكواها ومرارتها بسبب ارتباطي بـ"المهبولة"، ذكَّرتني بلعاب لسانها الذي لا يُنْسَى، وقلدت صوتها بغرابة، لحستْ قضيبي وخصيتي بلسانها، فاهتجت، وعرفت أن الله لا ينسى عباده المحرومين، وحينما سمعتُ أذان الفجر وتأهبتُ للخروج، انسحبتْ مكلومة.

(٢)

كل شيء ساكن في حجرتي، ملاية سريري، وركنها المملوء بملابسي، وبقايا علب كشري، وبلاطها الغارق في أعقاب السجائر ورائحة الدخان.

تلصصت على شخير جيراني أثناء خروجي، وتركتهم على أسِرَّتهم يَغِطُّون في نومهم ونزلت إلى الشارع، لم أكن أدري وجهتي، كل ما شغلني لحظتها هو البكَاء.

تمنيت الجلوس على أطراف الحارة، والنواح بوجيعتي كما فعلت جارتي منذ أيام، لكن حتى الحارة مملوءة بالسكون، ولم يكن هناك سوي أكوام القمامة التي تلتف حولها الكلاب، جالت عيوني وسطهم وتسمرت على غير إرادتي أمام هالتها.

سدَّدتْ سهامها إلى قلبي وخطفتني عيونها، ولا أدري لماذا وقفت مشدوهًا؟! أهو الخوف من رقتها؟ أم ترددي في المرور بجوارها متجاهلًا عيونها الحنون؟ أم أن شيئًا آخر يرتبط بمصيري معها؟

توقفت وقتًا طويلًا حتى هزت ذيلها سعيدة بنظراتي، وشعرت بوجدانها يقرأ داخلي، واقتربت مني ملوحةً بذيلها، لامست أقدامي ودارت حولي مرتين، ثم نظرت ناحيتي بعيونها المملوءة بالدموع.

سارت أمامي في الحارة ترفع ذيلها وتهزه، وتحيطني برفق وسلام لم أحسهما في عيون أية كلبة أخري، انطلقت بروحي وراءها، واخترقت شوارع طويلة وحواري ملتفة حتى وصلنا إلى الخرابة.

التفتتْ في براءة ناحيتي، ونظرت إلى أعماقي، كأنها تتأكد من حقيقة وجودي، واستقرت بجوار حائط مخفي في ركن بعيد عن أعين المارة، تمددت على الأرض سعيدة، ونادتني بعيونها، فجلست بجوارها راكنًا بظهري إلى الحائط.

مددتُ قدمي واسترخيت، وشعرتُ كأني داخل حلم، اقتربتْ مني ولحستْ وجهي ورقبتي، ورفعت يدي على غير إرادتي، وتلمستُ جسدها الناعم وبين أذنيها وتحت فكيها.

تسحبت أصابعي بين وركيها، واستقرتْ تحت ذيلها، شعرتُ بطاقة نور خلابة تملأ وجهها، ودون أن أدري شدَّتْ بنطالي ولحستْ قضيبي وخصيتي، فانتصبت عن آخري.

حَنَتْ نفسها يمينًا وشمالًا بمهارة لم أتخيلها، ودارت بوركيها فوقي عدة مرات كي تدخل فتحتها في عضوي.

انفجرتُ مرات ومرات، وهي تتأوه وترتفع وتضغط على خصيتي، كأنها تستدعي طاقة الحب الكامنة بأرجاء الكَون للاحتفال معنا باجتماعنا الأول الذي عاينته في الليلة الماضية بأحلامي.

يالها من سعادة أن تدخل بحضن حبيبتك في لحظة سكون الكون! خلاياك تتفكك وتهرب السلاسل من أعماقك، وينطلق قلبك إلى البحر العارم ليلقي بكل روثه في النار، وتدخل أشعة الشمس مفاصلَ روحك لتروي عطشك، وتعيدك من جديد طاهراَ طيباَ لا تبغي إلا الموت بين أغصانها.

أغمضتُ عيني وحلَّقتُ معها لحدائق واسعة، تمتلئ بالبشر والحيوانات المنسجمين وسط ندى الصبح وضيائه.

افترشنا ملاية سرير، وسط تجمع الثعالب والذئاب والحملان والبط والنساء والأطفال والرجال، وفتحنا خرجنا المملوء بالزاد والزواد، وضحكنا على تاريخنا.

انطلقت حولنا موسيقى حفيف الأشجار مع صوت اليمام، وخرجت أرواحنا من أجسادنا وتراقصت في دائرة رقيقة وسط نور الشمس، وغردت مع العصافير نشيد السعادة، في تلك اللحظة تساقط مطر التسامح والرحمة، وأعادنا وسط الحديقة مبتهجين بوجودنا.

(٣)

انزاح الشروق، ومر شعاع الشمس بين أكياس البلاستيك المملوءة بقاذورات المنازل، وطاف اليمام والحمام حولنا، وانسحبت "الكلبة" برفق من فوقي، ووقفتْ أمامي تنظر إلى عيوني باكيةً، ودَّعتني بإيماءة لطيفة لنرحل قبل هجوم الزبالين على الخرابة.

اكتشفتُ عريي، فقمتُ متلهفًا أداري عورتي، وسارتْ بجواري تتمسح بملابسي كأنها ملاكي الحارس.

عندما وصلنا إلى مدخل الخرابة، نظرتْ حزينة إلى السماء وودعتني، ومن بعيد لمحتها تبتعد عن تجمع الكلاب الرابض بركن الميدان.

حينما اقتربتُ منهم هاجوا عليها وطاردوها، جرتْ أمامهم تبحث عن مكان آمن، وفي لحظة ذهولي غابتْ عن عيني.

لم يكن هناك من سبيل سوى العودة إلى حجرتي، لكن رائحة الدخان وأكياس الكشري وملابسي المتسخة، أرجعتني عن قراري.

توجهت إلى الطابونة دون التفكير في التطهر من نجاستها، استقبلني الحاج "سعدون" معاتبًا على غيابي، ولولا علاقة الأبوية التي تربطنا لطردني شر طردة، اتهمني بالجنون لأنه مر بالحجرة ولم يجدني، لدرجة أن جيراني استيقظوا من نومهم على صراخه، وسبوني وسبوه في يوم واحد.

جهز التروسيكل المملوء بأجولة الدقيق سريعًا، وأعطاني مفتاحه، وطلب مني تسليم الدقيق لكلاف زريبة "سعد الزراب".

انطلقت وسط الحواري سعيدًا بالهواء الذي زمجر شمالًا ويمينًا وعبث بكوفيتي، أحسست بأني طائر وسط الحمام، لكنني عدت سريعًا من أحلامي، متذكرًا أن الكلاب ليست لها أجنحة.

داعبني حلم آخر وسط انطلاق التروسيكل بين المارة، وتخيلتُ هبوطي نهاية طيراني في جزيرة مملوءة بأشجار التين، هناك سأركن بين أشجارها مع كلبتي، نأكل السمك والفواكه، ونعيش كحبيبين لا يؤرقهما مطاردة الكلاب أو سخرية البشر.

استقبلني "رمضان الكلاف" أمام باب الزريبة، وسبني كعادته لتأخري حتى شروق الشمس، وحين صمت صوت التروسيكل، رفع أحد الأجولة على كتفه وجرى في الظلام داخل الزريبة.

نزلتُ مسرعًا، وسحبتُ الأجولة الباقية لأخفيها خلف الباب، كي لا يلمحنا "المخبرون" الذين يأخذون شهريتهم من صاحب الطابونة و"الزراب".

شخر "رمضان"، وأفصح عن حقيقة اتفاقهم المشروط بألَّا يرى أحدٌ الأجولة المهربة، وإلا ضاعفوا المعلوم وضاعت شهريته هو الآخر جراء اكتشافهم طرقنا السحرية.

أدرت التروسيكل سريعًا، وعدتُ أدراجي إلى الطابونة، ركنته أمام بابها، ودخلت ردهتها الواسعة منتشيًا بأداء مهمتي السرية، لملمتُ الأجولة الفارغة من وراء "العجان"، ووضعتها في

المخزن، وأضفت إليها خمسة أجولة فارغة، حتى إذا جاء موظف التموين وأحصى ما قمنا بخبزه وجد كل شيء تمامًا.

سبني "العجان" و"الفران" كعادتهما دون سبب، وانطلقا في مزاح طويل لتخفيف نار الفرن عن جباههما، مسحت عرقي في ملابسي ونظرت إليهما ممتنًا ببهجتهما.

طلبا مني إحضار الفطور، ونادى "سعدون" باسمي عدة مرات، وسلمني عدة جنيهات لأسلمها لـ"الخياش"، والمرور على "الفوال".

أثناء وقوفي أمام عربة الفول، شاهدت كلبًا أسود شبيهًا بكلبتي، وقف أمامي مكفهرًا، واقترب مني في غدر، وفي لحظة مباغتة انقض على جسدي، ولولا سرعة "الفوال" في دفعه بعيدًا وضربه بالشومة على رأسه، لكنت الآن ممزق الفخذ جريح الوجه.

جرى بعيدًا قبل أن تلمسني أسنانه، وملأ الشارع بنباحه الباكي، رمقني بغيظ وهو يزمجر شاردًا، وشعرت بنباحه يخاطب روحي: "نعم أنا كلب مشرد، أجري في الشوارع هاربًا من وجوهكم، محكوم عليّ بالعيش مطاردًا، والموت في إحدى البلاعات، دون شعوركم بأوجاعي".

"أراقبكم كل صباح وأنتم تهرولون إلى أعمالكم، وتتركون نساءكم وأولادكم العواهر يغطّون في نومهم، وتهربون إلى المجهول".

نظر إلى عيني بغضب مواصلًا نباحه: "تلصصتُ بمكر على تجمعنا حتى أوقعتها في شركك، وأغويتها لتسير معك حتى ركن الخرابة لتفجعها بقسوتك، وتتركها وحيدة تحلم كل ليلة بخروجها من القطيع، لتركلها في النهاية بقدميك، أعرفكم جنس البشر، لا يمكن لقلوبكم القاسية أن تعرف الحب".

سألني "الفوال" بتلقائية: "لماذا يقطرك هذا الكلب ويحاول إيذاءك؟!". لم أرد على تساؤله، فاستكمل سعيدًا: "ميهمكش حاجة.. ده كلب ولا يسوى"، تجاهلت صوته وأخذت الصينية المملوءة بالأطباق، وعدت إلى الطابونة مبتهجًا بنجاتي.

نادى "الفوال" باسمي بأعلى صوته، لأحضر قفصين من العيش إلى عربته، وإلا سلط كلابه المسعورة على مؤخرتي.

نزلتُ سلالم الطابونة المختفية تحت الأرض، ووضعتُ الصينية على البنك الذي يعجنون عليه الدقيق، وأخذت من المعلم قفصين العيش، وعدت مرة أخرى إلى "الفوال" الذي راقب عيوني منتشيًا بعدم اهتمامي بتهديده، أو تندره على ملابسي.

سلمتني زوجته سندوتش بطاطس كتحية مودة، قضمته على مرتين، وعدت إلى الطابونة نشوانَ بطعم الزيت المحروق والطحينة التي ملأت جوانبه.

النهار يقترب من منتصفه، والوردية توشك على الانتهاء، سلم صاحب الطابونة ظرف النقود إلى موظف التموين الذي أحصي كل شيء، ووقّع في الدفتر وغادر، وسط سخط "سعدون" وسبه لليوم الأسود الذي عينته الحكومة مراقبًا على عمله.

اجتمعنا حول الصينية، وأكلنا حتى امتلأت بطوننا، سخروا جميعًا من صمتي ورضائي بالمقسوم، اغتسلوا في الحمام الضيق سعداء بنهاية نوبة العمل، لبسوا ملابسهم وتركوني مع "سعدون الجربان" لاستكمال التنظيف والإحصاء، وحينما سمع أذان العصر سمح لي بالانصراف مهددًا بضرورة التزامي بالمواعيد، وإلا خصى بيوضي.

لم أهتم بمداعبته، وتوجهت إلى مطعم الكشري.

جلست وحيدًا أمام زجاجِه مخلوبًا من رائحة الصلصة والتقلية، سلمت صاحب المطعم الفضية التي وضعها "سعدون" في جيبي، فسلمني كيس الكشري وطالبني بالرحيل بعيدًا؛ لأن زبائنه تنفر من شكلي.

حملتُ كيسي وذهبتُ إلى حجرتي، وضعت الكشري في طبق بلاستيك، وأخرجت من فتحة جلبابي رغيف الخبز، وغمسته في الصلصة التي أذوب في مذاقها.

لم يحقق الله أملي بدخول المطعم المملوء بالأطفال والنساء السمينات، والجلوس بجوارهم على كراسيه الجلدية.

تمنيت أيامًا كثيرة تغيير شكلي، وارتداء بنطال وقميص مثلهم، والسير مختالًا على قدمي القصيرة بين الكراسي، حتى يأتيني النادل ويسألني: "طلباتك إيه يا أستاذ؟".

لو حدث ذلك، لأكلت وحدي عشرة أطباق غير عابئ بتأففهم. ملأت بطني وتجرعت، وتمددت على الحصير الملاصق للسرير، سعيدًا بشخيري.

(٤)

صحوتُ من نومي، ودخلت الحمام تائهًا في أحلامي، لازمتني "الكلبة" طوال الليل، بركتْ على سريري، وأخلعتني ملابسي ولحستْ جسدي، وأدخلتُ قضيبي إلى قلبها وهي تفتح فمها وتغلقه، وسال لعابها على مخدتي، وحينما هممت بالانفجار، أدارت وجهها بمهارة، ولعقت شفتي بلسانها، شربت لعابها الدافئ نشوانَ وامتلأت بالقوة، وعدت مرة أخرى لممارسة نفس الوضع حتى انطلاق أذان الفجر.

تناسيتُ أحلامي، ولبستُ حذائي المتهالك، ونزلت مسرعًا إلى الشارع غير عابئ بأعقاب السجائر أو رائحة بقايا الكشري الحامض، وتوقفت كعادتي أمام كومة القمامة باحثًا عنها، لأفجعها بحناني.

جابت الكلاب الملونة أرجاء الشارع، وغرقت وسط أجولة الرتش، ونبحت بغيظ لإبعاد القطط التي ترغب في مشاركتها الطعام، صرخت كبيرة القطط في وجوه الكلاب فتراجعوا، لتنعم القطط الصغيرة بلحس علب الزبادي.

تجولتُ بنظري في مداخل الحواري والنواصي، آملًا في تشمم رائحتها، لكن شيئًا ما في السماء أبلغني بعدم وجودها، انتابني خوف على مصيرها؛ فالكلاب الضالة عرضة في أي وقت لغدر الصبية وأصحاب المحلات.

توجهتُ مسرعًا للخرابة، وانزويتُ وسط الأكياس وركام البيوت، حتى وصلت إلى ركنها بجوار السورِ العالي، لكنني لم أعثر عليها، جلست في مكاني وحيدًا أعاتب السماء التي استكثرت عليّ مرافقة كلبة.

حدثتُ نفسي، وعددتُ بصوت عالٍ، حتى التف الزبالون من حولي، وسمعوني، شعرت بجروحي تحترق، وانغرستْ سكاكينهم فِي دمائي، وانسحب الدم بهدوء إلى عقلي، أين رحلتْ ؟ ولماذا اختفتْ؟

عاتبتها لهروبها بأولادي النائمين في بطنها دون سابق إنذار، صرختُ كمهبول: "هنيئًا لكِ بهجري وتركِي وحيدًا على قارعة الطريق أهوهو مثل المخابيل".

لماذا خلقتني يا رب؟ ولماذا دارت حولي وأسرتني بطيبتها؟ هل ترغب في إذاقتي مرارة الحسرة على أيام الخرابة المبهجة؟

وما الذي جعل قلبي يتعلق بعيونها؟ أنا لم أطلب منك شيئًا، كل ما تمنيته هو الموت، ليت عزرائيل يأتي ويقبض زمارة رقبتي بأسنانه، ويخفيني بعيدًا عن روحها التي تطاردني في يقظتي ومنامي.

لن أذهب اليوم للطابونة، وسأظل أبحثُ عنها في الخرابات، حتى لو ضاع عمري سدى، إذ يجب ملاقاتها ومعرفة مصيرها مهما كلفني الأمر.

تجاهلتُ سخرية الصبية الذين قذفوني بالأحجار، وتصنتُ على نباح الكلاب ومواء القطط، وجريت في الحواري مختفيًا.

يا ربِ كيف يعيش هؤلاء المحرومون من الحب؟ ولماذا يُدخلون أنفسهم في دوائر الحياة المخيفة بإرادتهم؟ أيستعذبون المرارة؟!

بركتُ وحيدًا على إحدى النواصي ملفوفًا بين أكياس القمامة، نظر المارة بغرابة إلى عيني الذاهلتين، واستمروا في سيرهم، شعر أحدهم بجوعي فناولني رغيف خبز، قضمته سعيدًا بالبراح المحيط بالسماء.

توقفت "المهبولة" أمامي، ونظرتْ إلى اللقمة الأخيرة، ناولتها إلى يديها في حب، وجلست إلى جواري صامتة.

شعرتُ برائحتها الدافئة تحرق أحشائي، مددت يدي بين فخذيها، وتلمست فتحة حياتها، فتأوهت سعيدة.

سحبتني هي الأخرى إلى الخرابة، وبركتْ على قضيبي والتهمتني، ونزلت من فوقي سعيدة، وسألتني: "اسمك إيه يا واد؟". لم أرد عليها ودعكت نهدها بأصابعي، فقهقهت قائلة: "يا خراب بيتك أبوك، نسيت الماشطة يا أهطل".

نبح أحد الكلاب من حولنا، فأفقنا على شر عيونه وابتعدنا عن بعضنا، وألقيت بنظراتي الغاضبة إلى قلبه، وصرختُ بوجهه، فهرول الزبالون وراءنا مرة أخري وسبونا، وازداد نباحهم والتمت الكلاب حولنا، فجرينا هاربين من شوم البشر الذين لا يشعرون بآلامنا.

نظر "محمد الزبال" إلى وجهي وأنا أجري وسط الكلاب والقطط، وهددني بإبلاغ "سعدون" بمعاشرتي للحيوانات، نظر حوله بشغف، وطلب من فرقة الزبالين مطاردتي حتى مدخل الطابونة لإفشاء أسراري.

قابلوا صاحب الطابونة، وحكوا تفاصيل معاشرتي لكلبتي، كان الكلب يراقبني كل يوم من خلف السور، ويبتهج لرؤيتي، لكنه صرح أمام الجمع بأنني فاسق أستحق الحرق، لمخالفتي ناموس الحب.

(٥)

على هذه الأرض لم أعرف أحدًا سوى "سعدون" الذي رباني وآواني في حجرة بمنزله دون إيجار.

يطعمني، ويشتري ملابسي وأغطية الشتاء، ويعطيني ثمن علبة سجائر وكوب شاي كل يوم، ولا أبغي من الله أكثر من ذلك.

علّمني أن رحلة الحياة قصيرة، ولا يوجد فيها سوى البهجة والامتنان برزقنا.

درّبني على تجاهل نظرات الناس، وشتائمهم بأبي وأمي اللذين لم أنعم برؤيتهما، ولم أسأل يومًا عن وجودهما، كل ما أعرفه عن الحياة، يوفره صاحب الطابونة في رضا.

حينما تعرفت إلى كلبتي وتوطدت علاقتنا، عاشرتها بالخرابة، وأحسست أن الدنيا أعطتني كل شيء... كل شيء.

ملأتْ حياتي بالحب والحنان والوفاء، تنتظرني فجر كل يوم على باب المنزل، وتجري من حولي، وتمسح جسدها في ملابسي، وتزوم في سعادة، تلتف حولي أثناء مرورنا وسط الحواري، حتى نركن قبل تيقظ الجيران في خرابتنا، وتشجيني بنباحها وحنانها.

لكن أن يأتي يوم وتهرب أو تختفي، فهذا لا يقبله عقل أو ضمير، فلماذا إذن ارتبطت بي إذا كانت لا ترغب في استكمال علاقتنا؟ وأين اختفت؟

يأكلني قلبي على فقدها، سُرقتِ البهجة من عيوني، وعدت لا أتحمل صراخ "العجان" و"الفران"، لدرجة أنني تعديت علىَ "الفوال" منذ يومين، وبصقت في وجهه حين نعتني بالأهطل.

الشيء الغريب أن الكلب الأسود الذي كان يراقبني ويتأهب لإيذائي، اختفى هو الآخر، الآن عرفت كل شيء عن أسرارها المدفونة.

لكن مشاعري ترفض تصور خيانتها؛ لأنها في المرة الأخيرة، رفعت يدي بأسنانها في رقة، ووضعتها على بطنها المنتفخ لتخبرني بأنها حامل، وأن أطفالها الذين يرقدون ببطنها في سلام، هم أبنائي وبناتي.

نعم لم تهرب، ولا يمكنها الاستغناء عن وجودي، هي ذهبت إلى خرابة بعيدة، أو اختفت تحت أبيار السلالم؛ لتلد أولادي، ثم تعود معززة إلى أحضاني.

في اللقاء الأخير الذي جمعنا، حزنتُ بسبب طاقتها المسلوبة وأوجاعها، ورغم قلقي على صحتها، لكني شعرت بفرجها المنتفخ يناديني، نبحتْ في صمت، وشعرت بشهيتي المفتوحة لمضاجعتها، يومها نظرتْ حزينة إلى عيوني كأنها تبلغني عدم رغبتها في قيامي بالأوضاع المثيرة التي كنا نقوم بابتكارها.

أأحزن لاختفائها؟ أم أمقتها لهروبها برفقة الكلب المؤذي؟ أأخاف عليها من برد الشتاء الذي بدأ في التلصص من تحت لحافي؟ أم أنساها وأتركها تنعم بحياتها الجديدة؟ أما زالت منتفخة، ولا تجد مكانًا آمنًا تضع فيها حملها؟ أم ماتت؟

رفعتُ يدي للسماء، ونظرت بمنتصفها، كي أشاهد الخالق الذي أفهمني "سعدون" بأنه ينام ويستريح خلف السماء السابعة، تضرعت إليه كي يعيد حبيبتي، أو على الأقل يحميها من برد الليل وقسوة الوحدة.

تجاهلتُ نباح "سعدون" لعودتي، ومحاولته تهدئة الزبالين ليشفقوا على حالي، وأدخلني الطابونة لأنظفها وأغسل بلاطها الأسود، لم أبالِ بصرخات "الفران" و"العجان" وسبابهما، أنهيت مهمتي كأني ميت، وخرجت وحيدًا إلى الشارع دون أن يراني أحد، وسرت في الحواري كأني كلب.

استوقفني رجل غريب يرتدي ملابس سوداء، أشبه بشيخ الجامع، وقال لي: "بركاتك يا مقدس!"، ولم يلفت انتباهي سوي صلبانه الضخمة المتدلية من رقبته.

اقترب مني وناولني طبقًا مملوءاَ بالخضر والفاكهة قائلًا برضا: "تناولها ولا تخف يا مخلصنا".

لمس شعري المتسخ بحقارة، وسحبني داخل كنيسته، وكدت أجري بعيدًا عن هالته، خوفًا من قيامه بامتطائي، لكن جوعي جعلني أتلقف أطباقه الساخنة في نهم، ولم أهرب من عيونه إلا بعد التهام طعامه.

وحين سمعت صوت العصافير واليمام فوق أشجاره سرتُ خارجًا من بهوه الواسع المملوء بالصلبان، وتوقفتُ أمام صورة امرأة باكية تهش أغنامها وتنظر إلى السماء كي ترأف بحالي، سمعت موسيقى غريبة، كأنني داخل حلم مجهول، فسِرْتُ عكس اتجاه الريح، حتى وجدت نفسي في خلاء وبراح غريب مملوء بالمدافن.

شاهدتُ نفسي وسط تجمع من الطيور والحيوانات، تلتف حولي في حب، وتتحسس قلبي وتبكي، وحين رأيت الهدهد يغني، واليمام يعزف أناشيد الصبر، توقفت لأسمع صوته يحكي عن وجيعتي: "نعم أنت الآن تشعر بقيمة الفقد، فمن كان سيعلمك أن اللحظات التي عشت بين أحضانها تسمى سلامًا، لو أخذ الله روحك في تلك الأيام لما شعرت بفقد رحيق النسمة التي روت قلبك بالمحبة".

تفككتْ حوائط قلبي، وانهارتْ فواصلي، وانسحبَ مسحوق الرصاص الذي آلمني طويلًا إلى خارج جسمي، وهربت السلاسل من روحي، لم يَبقَ بداخلي إلا شعاع عينيها الحنون، أعادت خلقي، وأشعرتني بأن هطلي أفضل صنع الخالق.

اختفى الطير بعيدًا، وتذكرت المتعة التي واتتني قبل وداعها في ركن الخرابة، يومها تمددتْ بجواري ولامستْ أطرافي، وغرقتْ في نوم عميق حتى اخترق صمتَنا نورُ الشمس، فقامتْ في هدوء، وغادرتْ للأبد.

لطشني أحد "الدراويش" بعصاه على وجهي، فهربتُ وسط الأحواش التي تمتلئ بالأطفال وبقايا الطعام والمشايخ، وسمعتُ صرخات غريبة متداخلة، لكلاب وقطط وبشر وصراصير ونعاج وعجول، جروا ورائي بين الأسوار حتى باب حارتي.

انزويت في مدخل المنزل مختفياً، ودخلت حجرتي مرعوباً، ونمت دون تناول شربة ماء.

(٦)

جاءني مداوي الضريح في الحلم صارخًا بوجهي: "عشْ كميت!". لم أفهم مغزى عبارته، وتذكرت شكله الطيب، والحدائق التي أحاطت مجلسه حين نطق: "أنت مهيطل، وسواء كنت حيًا أو ميتًا، فلا أحد يهتم بأمرك!".

هاجت العصافير من فوقه وهو ينظر إلى خيالي ويستكمل نصائحه: "اذهب إلى الجامع كل فجر، واستكمل يومك بالطابونة، وتجاهل مشاغبات العجان والخباز والفوال واستمر، لا تندمج بنقاشهم، ولا تكن طرفًا في حديثهم".

"اركب التروسيكل، ووزع الدقيق المهرب على الزرائب، اجلس نهاية اليوم بجوار الجامع أو الكنيسة؛ كي يعطف عليك أحد المؤمنين برغيف نابت أو لحم فاسد، راقب تجمعات الكلاب ومواء القطط الشاردة، والحملان المربوطة أمام الورش، وهي تنظر في الفضاء باكية".

أشعلتُ عقب سيجارتي، وفتحتُ شباكي المغلق منذ سنين، وسمعتُ صوت اليمام الرابض بالمنور يغني وينادي على الشمس كي تشرق.

سمعتُ حية سوداء تنظر من بين الحوائط، قائلة: "خُذْ قرارك بالانتحار يا مهطول، لماذا تستمر؟ يمكنني لدغك وإراحتك من هذا الجنون، اترك شباك حجرتك مفتوحًا ليوم واحد كي أدخل وأنام تحت سريرك، وحين تغرق بأحلامك سأصعد إلى جوارك لأدفئ جسدك، وألدغك دون أن تحس بالوجع".

أغلقتُ شباكي خوفًا من تحمل الجيران مغبة حملي في خشبة الميتين، وتغسيل جثتي، فيجب موتي تحت عجل القطارات، كي لا تبقى في جثتي قطعة واحدة يتذكرون بها وجهي أو رائحة عرقي.

أريد أن أمر إلى نهايتي كما جئت، لا صوتَ ولا همسَ ولا أحدَ يشعر بوجودي، كل ما أريده أن أحيا بينهم ككلب، وحتى إذا نبحتُ لا يفهم هوهوتي أحد.

أهرول من السرير، وأرد على "سعدون" الذي استقبل وجهي متسائلًا: "صحيت وحدك إزاي.. يابن الحايكة؟!".

سحبني إلى الجامع، وتركني في الميضة لأستحم، وبعد انتهاء صلاته، دخل الحمام، وألبسني ملابسي سريعًا قائلًا: "عندنا شغل كتير النهاردة يا مهيطل، شهل شوية".

أمشي بجواره وسط البيوت، تتقاذفني العيون الهاربة، أغوص داخل نفسي باحثًا عن بهجتها ورحيق أنفاسها، أغوص أكثر متلصصًا على نحيبها التائه في الماضي، أين ولدتُ؟ وكيف عشتُ؟ وهل رضعتُ من نهد امرأة؟ أكان أبي قويًا؟ أماتت أمي وهي تلدني؟ وهل أنا مولود مثل البشر، أم كانت أمي كلبة كحبيبتي؟

يصرخ "العجان" في وجهي لأناوله أجولة الدقيق، يبصق على الأرض وينظر إلى "الفران" سعيدًا من استجابتي السريعة لندائه، يناديني "سعدون" وينظر في عيوني بأسي مرددًا: "يابني مالك، أنت هتوه تاني؟! اتكلم، عيط، اضحك، قول حاجة يا مهيطل".

أخرجَ من الطابونة متوقفًا أمام "الفوال" الذي لا أفهم لغته، رغم فمه المتحرك، يواصل ضحكاته، لكنني لا أعي ما يقصده، ناولني الصينية، وقمت بدوري لنقلها إلى الطابونة لتناول إفطارنا الجماعي.

في منتصف النهار ذهبت لإعطاء "الخياش" نقوده، وفي طريق عودتي راقبتُ البلكونات المغلقة، والملابس المنشورة على حبال الغسيل؛ لعلهم سعداء هؤلاء البشر الذين ينامون الآن خلف الحوائط وتحت الأسقف الملونة.

أشعر بأنفاسهم وعيونهم الناعسة تنظر إلى ملابسي في سخرية، توقفت عند مدخل إحدى الحواري، متصنتاً على نباح الكلاب البعيدة، ومواء القطط المجتمعة تحت جدران الحوائط.

أحس بأنفاس النعاج التي تدس فمها في الزبالة، وتهرع خلف "عيسى الغنام" وزوجته، أتحسس صراخ الجديان، ولفلفته حول المعيز، وأشعرَ بنقنقات العصافير فوق الأسطح، وعلى الشجر الرابض بأركان الدنيا.

لا أحدَ في هذا الحي يحس بوجيعتي، الكل أغلق على نفسه أبوابه، ونام آمنًا بداخلها.

متى يصحون ويشعرون بوجودي، ويفهمون لغة الرحمة؟! ألمح من بعيد غراباً أصفر العينين، يرمقني ويقترب من هالتي صارخًا في وجهي: "إنت جيت تاني!".

أراقب أجنحته السوداء وعيونه لأعيد سؤاله: "الجميع ما زال هنا، ولا نعرف أين سينتهي بنا المطاف؟ لماذا جئت ورائي أيها الغراب؟".

يطير أمامي، ويسحبني بعيونه من الناصية، ويحط وسط الجراج المهجور، أجلس بجواره وأحس بوجيعته وهو ينعق: "لا يوجد خير أو بشر هنا، لا همس داخل الدار، ولا نقيق للضفادع، ولا أسراب للنمل، لا توجد الآن إلا الفئران والحيات التي تملأ مناور البيوت، لا أحد في الحي معك، سيقتلونك، رغم صمتك؛ لأنهم يعلمون أنك تفهم لغتهم السرية".

أتركه مستاءً من يأسه، وأتجول بالحي، أرى المقاهي المكتظة بالبشر تغط في ضجيج مزعج، أندهش لجهلي تمييز أصواتهم، فقط أرى أفواههم المفتوحة وأياديهم الساخرة من شكلي، أجري بعيدًا، متفادياً طوب الصبية الذين يهرولون خلفي محاولين إصابة وجهي.

تأخذني أقدامي إلى الخرابة، وأبحث وسط أكياس الزبالة عن مكان مستوٍ، أضع بعض الكراتين على وجهي وجسدي، وأغط في نوبة نوم عميقة. لم توقظني إلا أسراب الذباب التي اقتحمت الكرتونة، وعبثت بفمي وأنفي باحثة عن رزقها.

قمتُ مفزوعًا على صوت اللودر، وجريت خائفًا من وجه "محمد الزبال" الذي رماني من بعيد بزلطة كبيرة في رأسي تفاديتها بأعجوبة، وخرجت للميدان باحثًا عن ركن آمن.

اقتربتُ من محل الكشري، وطلبتُ من صاحب المطعم كيسي، لكنه خرج بعصاه الغليظة، وطردني من الشارع، مكرراً قرف زبائنه من مشاهدة فمي وهو يلوك بالطعام.

المحلات مغلقة كأن بضاعتها نضبت، ولا أحد في السوق، حتى النساء الرشيقات اللائي كنَّ ينادين على الفجل والورور اختفين، ماذا حدث؟ هل أخذوا عيونهن في ظلام الليل؟ وأين هالة "وفاء" الصباحية المبهجة التي ملأت الفضاء بالوجع؟

لا أحدَ سوي صوت اليمام والغراب الحائر من فوقي، أعود إلى حجرتي، وأفتح شباك منوري، فترعبني عيون الحية، أغلقه بسرعة في وجه اليمام المغرد للعشق والمُلك، وأعود مرة أخرى إلى الطابونة، فأجدها مغلقة.

أنظر من بعيد، ولا ألمح "الفوال" واقفًا على عربته، فجأة يقترب "سعدون" من جسدي قائلًا: "النهاردة أجازة، إيه اللي جابك يا وله؟!".

يفتح باب الطابونة ويتركني بداخلها لأنظفها، ويخرج لحال سبيله ليلحق بصلاة الجمعة، أ سمعُ صوت المفتاح يغلق الباب فأشعر بالطمأنينة وسط الظلام.

مهبولة

(١)

جريتُ بعيدًا بمخلاتي متفاديةً أحجارهم وكلامهم المسموم، يلتقطني "الفران" ويخفيني داخل طابونته المملوءة بألواح العجين.

شعرتُ بجسمي يحترق وهو يفعص نهودي الضخمة، ويسب الدين للصبية المتجمعين في الشارع، وأخافتني قولته المكررة: "مش هتخرج للشارع مرة تانية.. يا كلاب".

سحبني بقوة من يدي وأدخلني حجرة مظلمة مردداً: "متخفيش يا نعيمة متخفيش... دنا بحبك يا بت".

رفع جلبابي المتسخ، وتحسس فرجي منتشياَ، وسمعت صوته الذي أرعب الظلام: "نامي يا بت، وسعي رجليكي شوية، أيوة كده، افتحيه يخرب بيت أمك".

بكيتُ ولطمتُ خدودي، ولم يبالِ بنباحي، وهرس عظامي، نظر إلى لحمي بجنونٍ، وضغط على بطني، وانتفض، وعض نهدي ورقبتي، وبللني بصنانه، وصرخ من فوقي منتشياَ: " آه آه".

تمدد إلى جواري صامتًا، ثم تحول إلى شخص آخر شبيه بالبرص، رفس مؤخرتي في غضب وأشعل النور، وداسني بأقدامه قائلًا بفزع: "يلي يا بت الرفضي قومي... العيال مشيوا خلاص!!".

لململتُ ملابسي، وشددتُ لباسي، وحملتُ مخلاتي في خضوع وتأنٍّ، فدفع وجهي بغيظ قائلًا: "شهلي يا بنت المدهولة.. هتفضحينا". وقعتُ على ألواح العجين، ودست بأقدامي في أجولة الدقيقِ، وصرخ في وجهي، فجريت إلى الباحة الواسعة مبتعدة عن شرر عينيه.

نادى عليَ بعد خروجي إلى الشارع، ونظر إلى عيون المارة، وأعطاني عدة أرغفة وبعض الفضية، وضعتها في مخلاتي واستكملتُ سيري دون الاهتمام بنظرات الكلاب أو سبابهم.

جسمي يتآكل، وحمولتي تزيد، أركن في ظل حائط لأستريح، فيبصق الباعة الجائلون على وجهي، ويسخرون من أقدامي المشققة، وأسناني السوداء، وشعري المنكوش.

هرول الصبية مرة أخري ورائي، سعداء بترديدهم النشيد اليومي: "العبيطة آهه.. العبيطة آهه".

ليس لي أرض أو حجرة أنام فيها، وليس لي عمل سوى تسول لقمة العيش منهم.

أكرههم رغم أحضانهم وروائحهم، ولا شيء في حياتي يضاهي لحظة اختفائي بعيدًا عن أياديهم وألسنتهم.

اختفيت بعيدًا ونمتُ وسط كراتين الخرابة بين الأكياس التي تشبه شعري المنكوش.

نمتُ بعمق دون أذاهم، لاعتقادهم أني خرقة مليئة بالقاذورات، ولم يزعجني إلا صوت اللوادر التي أتت لتفزعني، وتفضح هويتي.

يكتشفني "الزبال" فيهرول ورائي ويلعب شنباته، ويشدني صبيانه من نهدي، ويرددون بجنون: "قولي بحبك يا نعيمة"، فأردد مبتعدة ومرعوبة من أفواههم: "بحبك.. بحبك.. بحبك".

عدتُ إلى الحواري، وجلستُ أمام مطعم الكشري، رش صاحبه ماءه الغارق في الفلفل والطماطم على وجهي.

ابتلَّتْ ملابسي بالوسخ، فازداد هرشي، وجريت من أمامه غير عابئة بقهقهته العالية.

اقتربتْ طفلة من جسدي، وسحبت يدي، وتركتني بجوار امرأة سمينة بمدخل إحدى الحواري، جلستُ أمامها، فوضعتْ أطباق الطبيخ على حجري، والتهمته منتشية بعيونها.

سحبتني من يدي، وأدخلتني إحدى الحجرات، وأضاءت النور، وفرشت بطانية متسخة على سريرٍ صغير، وقالت بحب: "ارتاحي يا ريحانة".

تسحّب بجواري في الليل، والتصقَ بجسدي، قائلًا: "دي أودتي يا كلبة اللي بنام فيها، اوعي تعضيني.. هستناكي كل يوم متنسيش"، شدَّ اللحاف على جسدينا ورحنا في نوبة نوم عميقة.

في الليل جاءتني امرأة ضخمة الجثة، ادعت أنها أمي، نظرت إلى شعري المنكوش من تحت جاموسة كانت تحلب اللبن من ضرعها النضر، نظرت إلى دموعي وقالت والبكاء يملأ عينيها: "ده أنت ست الستات يا بت متقلقيش".

جلستُ أمام الزريبة أنتظر خروجها بالحليب، سقتني حتى ارتويت، وجلستُ في البراح المحيط، أقلب في ترابه الناعم، صنعتُ حقولًا صغيرة مملوءة بالأحواض والترع، ورميتُ فيها بذوراً بيضاء ناصعة، وتفاجأت بإنباتها خضراً كثيرة، لم أتعرف منها إلا على أعواد الفجل والجرجير.

رأيت "مهيطل" يجلس بجواري، ويعطيني رغيفًا مملوءًا بالطعمية، ويقطف أعواد الجرجير ويضعها في فمي، رفعني على بطنه، وتحسس أعضائي بحِنان، وسار أمامي حتى وصلنا إلى حديقة النهر، جلسنا في براحها نشرب حليب أمي الذي لم أنسَ طعم مذاقه أبدًا.

شعر بوجوده في أحلامي، فشدني داخل أحضانه، ودفأ قلبي، ونمت على صدره حتى الصباح.

لم يزعجنا إلا صوت "سعدون الجربان" الذي دخل علينا، ونادى بأعلى صوته في الفضاء ليفضح أسرارنا، فحملتُ مخلاتي وجريتُ هاربة إلى الشارع.

خلبتْ روحي زقزقاتُ العصافير التي طارت فوقي، لتطمئنني على اقتراب ظهور نور الشمس، توجهت على غير إرادتي إلى مكاني المفضل، تسحبتُ وسط الحواري وعبرتُ الجسر قبل يقظتهم، حتى وصلت إلى ربوتي الغالية.

(٢)

جلستُ في بقعتي المخفية على الشاطئ أستريح من وشوشات الكلاب ونباح البشر، خلعتُ ملابسي ونزلت وسط المياه أصطاد الأسماك الصغيرة، وألعب معها في سلام.

داعبتْ قدمي برفق، ولامستْ مؤخرتي، ولم تعبأ بصفير الصندل البعيد ودخانه، وحينما أشار أحد ركابه إلى رأسي المبلول، جريت وسط الموز، وارتديت لباسي سريعًا.

خرج من المياه كعادته، وتسحب مقتفياَ آثار أقدامي، ألقى على وجهي بزهور البامية اليانعة، وغرد وتقافز حولي مثل الأسماك، جرى ورائي وسط الموز، ولحقني قبل ارتداء جلبابي.

أشار بالصمت إلى عيوني، ودون همس، تحسس جسدي ووجهي وبطني بأطرافه الناعمة، ثم وضع عضوه الزائد عن جسده في فتحتي.

ظل يدخله ويخرجه حتى ملأتْ روحي السعادة، وعندما شعر بامتناني، قبَلني في فمي سريعًا، وهرب كعادته نحو النهر، وغرق وسط المياه.

ارتديتُ ملابسي وسرتُ وسط أشجار الموز حتى صعدتُ إلى الجسر، جلستُ بجوار المقهى ممتنَّة للسماء والنهر، وجاءني القهوجي بكوب الشاي وملَّس على شعري، ونادتني زوجته الطيبة بعشق: "إزيك يا نعيمة.. جعانة يا حورية.. أجيبلك حجر معسل ياما؟!".

سلَّمني أحد روادها سيجارة مشتعلة، فسحبتُ دخانها القاتم، غطَّى على وجهي وأنفي، وشعرتُ بدوخة منعشة أفقدتني وجوههم.

تركتُ المقهى وسرتُ على الجسر للوصول إلى مرقدي الذي تعرفه أقدامي كما يعرف الحمار مكان الحقل.

السماء صافية من فوقي، ومياه النهر تلمع من بعيد، وأنا ما زلت أحيا بين أحضان كلب البحر الذي طهَّر جسدي، وغرق كعادته وسط زرقة المياه.

سمعتُ صوت العربجي من خلفي يناديني: "اركبي يا نعيمة.. نهارنا فل"، لم أهتم بندائه، فتوقف بعربته وحلف ميت يمين لأركب بجواره وتوصيلي إلى مدخل الحي.

رفعني من مؤخرتي، وضغط على فتحتي بقوة كي أستجيب لندائه، وحين فشل في محاولاته لضخامة أوراكي، سحبني من يدي ونزل وسط حقول الموز وهو يردد: "متخفيش يا بت.. دنا هبسطك".

فوجئتُ بملابسي غارقة في الدماء، كعادتي بعد معاشرة كلب البحر، ولم أكتشف ذلك إلا بعد بروكه فوقي كالجمل.

شد ملابسي وعراني تمامًا، فعص لباسي؛ لأعاين نقاط الدم، ورائحة برازي التي نزلت على غير إرادتي، لحسها بنشوة، وأدخل عضوه الزائد عن جسده في فتحتي، فامتلأ عن آخره بالدم، جحظتْ عيونه، وزاد جنونه، كلما تحسس نقاط الدم بلسانه.

ظل ساعتين يبرك فوقي، ويصرخ: "آه آه"، وأنا أبكي متوسلة ومستغيثة ليرحم ضعفي، ولولا صراخ الأغنام والكلاب على الجسر لافترسني، قام مسرعًا ليلحق بحماره، وتركني أنعى حالي.

سمعتُ حفيف أشجار الموز يعدد، نظرت إلى السوباطة التي اهتزت قائلة: "يا غربتي يا شوق يا بحر يا مسافر، إمتى الرجوع ليك والسكة بتعافر، ملعون أبوها السنين عاجزة وبتعافر".

ارتديتُ لباسي وجلبابي، وحملتُ مخلاتي وخرجت إلى براح الأرض، لم أسمع أصوات المارة، ولا باعة الفاكهة الذين يملئون الجسر، ولم أشعر بأحجارهم المقذوفة في وجهي، واستكملتُ سيري وسط الكلاب والأغنام التي تهرول حولي حزينة.

ربطني "عيسى الغنام" مع المعيز والنعاج في حبل ليف ثقيل، وعجزتْ رقبتي عن حمله، فوقعتُ من طولي ألحس التراب وأستنشق الغبار.

رفستني زوجته "سليمة" التي يمتلئ وجهها بالغل، ونبحتْ في روحي برذاذها، فقمتُ مهرولة ومرعوبة، ولم يشغلني وقتها إلا ابتلاع دموعي وحسرتي.

نظرت إلى المزارع التي تتوسط الجسر والنهر، ورأيتها تتحول إلى قطران أسود نزل من السماء، وأحال خضرتها إلى بركة مخروبة، بحثت بعيوني عن آثار الحياة، وفشلت في رؤية نور الشمس.

حينما وصلنا إلى مدخل الحي، حلوا قيودي، وابتعدتُ عن لمّ الأغنام، وسرتُ وسط أكياس الزبالة متحسسة وجهي، وشعرتُ برائحة دمائي تملأ أصابع يدي، فجلستُ خلف الحوائط وتبولتُ.

سمعتُ صوت الصنان يدق الأرض، مطهراَ جروحي وقلبي، وملقياَ بكل دمائي الملوثة في فتحة صغيرة خلقها بدفئه وقوته وسط التراب.

التمّ المارة حولي وقذفوني مرة أخري بأحجارهم، لم أنظر إلى عيونهم، ولم أسمع نباحهم، ورفعت لباسي، ومسحت يدي المملوءة بدمائي في التراب، وحملتُ مخلاتي على ظهري واستكملتُ سيري.

(٣)

جريتُ بين الحواري غير عابئة بوجوههم الشبيهة بالذئاب، أخذتني أقدامي إلى أسوار المدافن، وجلست بجوار أحد الدراويش الذي قرأ آياتٍ غريبة بصوته الناعم فشجاني، وسألني عن اسمي.

تجاهلتُ نظراته، وابتعدتُ عن جسده، واتجهتُ إلى مدفني المفتوح على الشارع.

تلفتُّ حولي شمالًا ويمينًا، ودخلت بهدوء ركني الذي أعرفه، مسحتُ التراب عن الأحجار، ووضعت الجنيهات الفضية داخل مخبئي، وراكمتُ التراب عليه مرة أخرى، ونمتُ فوقه سعيدة بكنوزي.

أيقظني نواح الكلاب، وشعرتُ بالثعابين تسير فوق جسدي، فضغطت على وجهي لأتأكد من وجودي.

أفرغتُ الأرغفة من أكياسي، فالتمت الكلاب والقطط والنمل والسحالي والثعابين على خيراتي.

نظرتُ إلى القمر الذي ملأ السماء، ودعوت بصوت عالٍ لخالق الكون أن يحميني ويبعد عني أولاد الأبالسة.

نزلتُ درجات المقبرة المفتوحة في هدوء، ووضعتُ مخلاتي الفارغة تحت رأسي، واستكملتُ أحلامي.

وجدتُ نفسي أطير وسط أسراب الطيور إلى جزيرةٍ وسط النهر، وشاهدتُ "مهيطل" في ملابس بيضاء، يحمل عصا صغيرة، ويرفع تاجًا مرسومًا عليه اسمي وصورتي، حط مع جمع الكلاب إلى جواري، وتحسس شعري كأميرة.

أشار إليهم كي يبتعدوا، ونزلنا إلى عمق المياه، وغرقنا وسط الأسماك التي أحاطت أجسادنا بالفرح، وتذكرنا بهجة طفولتنا، فغطسنا برءوسنا ليداعب الماء أرواحنا.

خرجنا عرايا، وأكلنا الموز والتين من بين الأغصان، ونمنا تحت الأشجار الوارفة حتى تسحّبَ ضوء النهار الحزين.

أيقظني صوتهم المتلصص كالفئران من أحلامي، فصرختُ مستغيثة، فاقتربوا من وجهي حاملين السكاكين، ركلوني بأقدامهم ليتأكدوا من حياتي، فتشوا جلدي، وأخلعوني ملابسي باحثين عن كنوزي.

حينما فشلوا في العثور على أسراري، سحبوني خارج المقبرة، وفعصوا جسدي، وطلبوا مني مراقصتهم كالقرود، انطلقت الموسيقى من أجهزتهم المخفية بجيوبهم على ضوء القمر، وترنحوا حولي كمجاذيب.

اقترب أحدهم من جسدي العاري ورفع يدي في الهواء قائلًا بنشوة: "ارقصي معاي يا نعيمة.. يلي يا بت، ده انتي هتشوفي أيام سودا".

التفوا حولي ونهشوا لحمي، انهار قلبي صارخًا في السماء فجروا هاربين كالأفاعي، مرعوبين من صدى صوتي الذي دفأ عروقي.

ارتديتُ ملابسي وخرجتُ حالمة بالوصول إلى الحي، علَّني أنام ولو ساعات قبل عودة الكلاب في الصباح.

أحاطتني العفاريت والأشباح التي ظهرت واختفت بين الأحواش، وداعبت مؤخرتي حتى وصلت آمنة إلى الميدان الذي يطل على الخرابة.

جلستُ وحيدة وسط ظلام الليل في ركني، نبحت الكلاب من حولي، فتجاهلتها، وتمددتُ على الأرض سعيدة بالقمر الذي يتوسط السماء، والنجوم التي تحوم حوله في توازن عجيب.

اقترب أحد الكلاب من جسدي ووضع وجهه على صدري، ونام في أحضاني، تحسست بطنه وضلوعه، وداعبتُ عضوه المنتفخ تحت جلده، ففتح عيونه وقام فاردًا طوله، شد جلبابي بأسنانه الناعمة، ولحسني كابنته، تلمس فتحتي، وأدخل عضوه سعيدًا بسلام عيوني.

لم يكن هناك صوت أو همس، فقط دقات قلبي تتراقص من السعادة، وعيوني النائمة تتمنى الرحمة.

أنهى مهمته وتسحّبَ مرة أخرى على بطني، ووضع رأسه بين نهدي ونام حتى انطلق صوت الميكرفون ينادي المؤمنين للصلاة.

انقلبت الخرابة مرة واحدة، وهاجت الكلاب والقطط الثعابين، وجرت أسراب النمل مرعوبة تحت أقدامهم الغليظة، اقتربوا من جسدي، ورفعوا عصيهم الغليظة، ولسعوا جلدي الطري، وهرولوا ورائي، وشدوني من شعري غير عابئين بنباحي.

يشبهون بعضهم بملابسهم السوداء، وبنادقهم المعلقة على خصورهم، وعيونهم المغلولة.

طافوا وسط الميدان والخرابة، ووضع أحدهم بقوة أصبعه الكبيرة في مؤخرتي، وسخر "المخبرون" الذين يعرفون تضاريس جسدي من عيونه الميتة، وجروني إلى كبيرهم الذي نظر إلى شعري المنكوش صارخًا: "ركبوها البوكس يا غجر.. كفاية".

تبولت على نفسي وأنا أراقب عصيهم المرفوعة في غضب، وهي تنزل على بطني ووركي في عنف.

ساعدتهم لأصعد سلالم البوكس، وجاءني هاتف غريب خفف من جروحي، ومسح الدم عن أنفي، سمعته يردد في وجوههم صارخًا بقوة: "لا تقطفوا الحب من الميادين، ولا تقلموا الأشجار، فخلف الشوارع مهابيل كثيرة، يمكنها تمزيع أجسادكم ساعة الصحوة".

دفأ قلبي وهمس بأذني: "النهر ملكك، والسماء غطاؤك، وأنت الأميرة التي تنتظر الفرج".

شعرت بالمرارة تملأ قلبي، أحتاج لدفء سرير "مهيطل"، وأنفاسه المملوءة بالمحبة، أحتاج إلى قلب كلبي الذي يزيل القسوة وماء النار من روحي، أحتاج إلى الونس الذي افتقدته يوم حلمت بأمي تعاقر العجل في زريبة المواشي.

مر البوكس وسط الحواري، معلنًا وصول الذل إلى نهايته، جروني من شعري مرة ثانية، وساقوني داخل جدران جديدة محاطة بالأسوار، ركنتُ بمخلاتي في أحد أركانها، وذرفت دموعي الهادرة حالمة بالرحمة.

(٤)

سحقوا وجهي ومؤخرتي في غضب، وجروني من شعري حتى أدخلوني حجرة مغلقة، فتحوا بابها وألقوني وسط نسوة مهيبات، وزمجروا في وجوهنا جميعًا، وبصقوا علينا، وشدوا الجنازير في قسوة.

سألتني إحداهن عن تهمتي في تهكم، لم أرد، فباغتتني أخرى متلهفة على معرفة اسمي، سخرتْ من هطلي، وأدخلت أصابعها في شعري الأكرت قائلة: "وايش تعمل الماشطة في الوش العكر؟!".

وحينما بكيتُ بحرقة، بسبب شعوري بطعم الدمِ الذي ملأ أنفي ولحسه لساني، اقتربت إحداهن وطبطبت على ظهري، وأعطتني رغيفًا مملوءاً بالجبن، فالتهمته وعدت سعيدة لرؤية نن عيونها اللامع.

تركني بحالي في النهاية لأنام، وأرتاح من مطاردة الكلاب.

أغلق الحراس النور، وشعرت بأني وحيدة رغم زحام المكان وأنفاس النساء اللاهثة، مددتُ أقدامي وتساندت على الحائط بجذعي، وغطتْ روحي في سبات عميق.

جاءوا بأحلامي مرة أخرى، ووضعوا رقبتي في القيود، وربطوها في حمار أعرج، وظلوا يجوبون الحواري ويغنون: "العبيطة راحت.. العبيطة جت".

انهارت روحي، وتسمرت أقدامي، فضاقت حلقات السلاسل على رقبتي، وعافرت بأصابعي كي لا أختنق، لكني فشلت.

صرخت في السماء لتنجدني، وشاهدت نارًا تخرج من أنفي وفمي وتلقيها على تجمعهم وحميرهم وكلابهم ومخبريهم، ليحترقوا أمامي كالهشيم.

صهرت النار قيودي، ورفعت أقدامي، لأقف وحيدة وسط الدخان الذي أحال الحي إلى مستنقع عفن.

شعرتُ بأيادِ تعبث في بطني، فعدت من الحلم، ونظرت إلى المرأة التي ضحكت بوجهي، واستدارت خلف مؤخرة امرأة أخرى، تهامستا وفعصتا نهدي بعضهما، ولم تهتما بشخير النائمات اللائي ينشدن ويغردن ابتهاجا بالنعيم اللائي يغرقن في جحيمه.

سمعت صوت المفتاح يدور في الباب ففتحت عيني، وشاهدت المرأة التي أعطتني الرغيف تقف عارية مع أحد العساكر بمدخله الضيق، فعص نهدها، وزنق جسدها في الحائط، وكاد يقتلها بضغطه على فتحتها، فصرختُ على غير إرادتي، فابتعد عنها مفزوعًا.

رفسها بيديه لتدخل من الباب، وأغلقه وسار بعيدًا في الظلام، استكملتُ نومي، ولم أبالِ بنواح المرأة التي ملأت الحجرة بالدموع.

حين دخل أحدهم في الصباح، ووضع القيود في يدي، صرخت مرعوبة، فطمأنني بأنني سأخرج إلى براح الشارع.

طالبتهم بأن يتركوني في هذا المكان، نظروا إليّ برأفة، وغرقوا في ضحك متواصل.

جروني من الحجز حتى أسفلت الشوارع، وكاد العطش يجرح زوري، وشعر العسكري بجفافي فتوقف أمام باب الجامع وأعطاني القلة، شربت حتى تكرعت في وجهه، فبصق على أنفي قائلًا: "دي آخرتها يا بنت المهبولة!".

الباعة ينظرون إلى جسدي في غرابة، وسائقو الباصات مرعوبون من منظري، ويتشدقون في شفقة على حالي.

قطرني كلبي وراقب العسكري الذي توقف عدة مرات ليشتري سجائر، وحينما أشعل سيجارة وسلمها إلى يدي، نبح "الكلب" بغيظ لم أتوقعه.

حينما وصلنا إلى النيابة، فتح الحناكيش أبوابها للحارس الذي أدخلني زنزانة جديدة محاطة بأسوار حديدية، ورأيت نساء ورجالًا يحيطون بأسوارها، ويتهامسون بإثارة عن الدم والأبناء والزوجات والخيانة والعشق.

ناولني أحد العجائز رغيفًا مملوءًا باللحم، فرفضته، ورفعت زجاجة مياه مركونة على الجدران وشربت حتى امتلأ جوفي، ونظر أحدهم إلى عيوني قائلًا: "ادعيلي يا مهبولة".

تجاهلته، وأبعدتُ أصابع العجوز عن مؤخرتي، وجلستُ مستندة إلى الحائط أستمتع بنباحهم الخافت.

حلُّوا قيودي وجروني من الزنزانة الحديدية، وصعدنا إلى أدوار المبنى العالي، وأدخلوني دون مخلاتي لملاقاة صبي صغير، يمتلئ وجهه اللامع بالبراءة، سألني عن أشياء كثيرة لم أفهمها، وحين احتار من صمتي ونحيبي، صرخ في الباب، فدخل أحد العساكر مسرعًا، فسبه قائلًا بحرقة: "خذها... ومشيها من هنا حالًا".

جرني العسكري إلى مدخل مظلم، ولطعني على وجهي قائلًا: "براءة يا بنت المرة، يلى غوري"، تركوني مرة أخرى أواجه مصيري بين الكلاب.

(٥)

دخلت الضريح مسحوقة، وشعرت بأني كائن يستحق الرحمة، جلست على كليمه الأخضر، وراقبت النساء والأطفال وهم يدورون حول قبره، باكين مرددين أمانيهم وأحلامهم بطلاقة وصفاء نية جعلتني أتأسى لحالهم.

بكيت بغزارة وسط حيرتهم، وخرجت بروح صافية إلى الفضاء المحيط بالمبنى، جلست بجوار امرأة عجوز حبلى باللحم المتهدل على عظامها، ناولتني رغيفًا مملوءاً بالنابت والأرز وقالت ببراءة: "كلي يا نعيمة متخافيش... كلي يا مبروكة وادعيلنا"، قضمت الرغيف في نشوة وتمددت إلى جوارها سعيدة.

صحوت من نومي على صوت "الخياش" الذي دفأ جسدي بروحه، وناولني عدة برتقالات، قشر إحداها في هدوء وسلمها لأصابعي، قضمت فصوصها في تلذذ متجاهلة ذهوله، جلس بجواري ونظر إلى عيوني قائلًا: "بالهنا والشفا يا ست الستات".

هرب طيفه بعيدًا، فحملت مخلاتي وسرْتُ وراءه حتى باب بهو واسع يصطف فيه جمع غفير من الناس، نظرت من بوابته المفتوحةَ على طيفه، فوجدت مئات البشر يبوسون الأرض، ثم يقومون ويقعدون، ويبتهلون رافعين أياديهم للسماء.

دخلت بمخلاتي الثقيلة، باحثة وسط صفوفهم عن طيبته، صرخ أحدهم من ورائي، وتمتم بعض الواقفين في الصفوف الأخرى، وجرني من شعري رجل أشيب يمتلئ وجهه بالشعر، لطعني على خدي بمداسه، وألقاني في الشارع حتى لا أنجس سجادهم الطاهر.

جريت أمامهم، و هربت بعيدًا عن عيونهم، افترشت الأرض تحت شجرة الميدان الناشفة، وفتحت مخلاتي، وأخذت برتقالة من برتقال "الخياش" والتهمتها بقشرها.

التف حولي الكلاب والصبية من كل جانب، وطاردوني حتى مدخل بهو آخر يرتفع صليبه المضيء في السماء، خرجت من حوائطه موسيقى حزينة، واستقبلني وجه رجل أبيض مشع، طبطب على رأسي وناولني رغيفًا مملوءاً بالعدس، وطلب مني الرحمة والمغفرة.

جذبني برفق لأدخل منزله الواسع، ولخوفي من عيون صبيانه الجالسين على البوابة، هرولت في الشارع مرة أخرى، أبحث عن مكان يؤويني.

أخذتني قدمي إلى الشارع الواسع، وسرت بجوار حوائطه العالية، حتى تلقفني "الزراب" وأجلسني بجواره وطلب مني الغناء كالعصافير.

لم أفهم ما يعنيه، لكنه لعَّب حواجبه، وتمتم بموسيقى غريبة، وسمعت صوته ينقنق: "تيك تاك توك"، فتح شدقيه كي أقلده، وحين أعياه التعب من السخرية على شكلي، نادى بصوت عالٍ: "يا رمضان يا كلاف، خذها جوه، أكلها وشربها، واوعى تزعلها، دي مبروكة يا عجل".

ابتهج "الكلاف" بحضوري، وسحبني داخل الزريبة، وفي مكان مظلم أمرني بملاطفة جلدة متدلية بين وركيه.

وحين لم أفهم مراده، أمسك يدي ووضعها على عضو زائد عن جسمه، وفعص نهدي، واقترب أكثر من جسدي، واحتضنني وبكى على صدري.

ضغطت على خصيتيه، فصرخ، ولطعني على وجهي بكفه، فخرجت مرعوبة من نباحه، ولم ترأف بحالتي إلا عيون البقر والجواميس التي بكت حالي.

اختبأت بطوالة العلف، فصعد ورائي عارياً، ونزلت تحت بطن الجاموسة خائفة، وفاجأني برأسه المتدلي كالمشنوق، قائلًا: "متخافيش يا بت دنا زي أبوكي".

لفحته الجاموسة بذيلها المملوء بالروث على وجهه وعينه، فصرخ وسبني، وجرى بظهره المقوس إلى حوض المياه ليغتسل ويرتدي ملابسه.

هربت وسط الزريبة، وجلست إلى جوار حمار أبيض يتدلى قضيبه الطويل من آخر بطنه، لامسته برقة، فانتصب عن آخره، وحنَى أذنه ناحيتي ونهق صارخًا من الحرمان، انحنيت تحته وأمسكت بقضيبه ووضعته بفتحتي، فاهتاج وزمجر وصرخ كالمهبول.

فعصت بأقدامي في الوحل، وغرقت ملابسي في خرائها، فهرولت إلى الشارع مرة أخرى صارخة، والأطفال يغنون ورائي: "العبيطة آهي.. العبيطة آهي".

(٦)

أثناء هروبي، جال بخاطري شبحه الطيب، بحثت في السماء عن طيفه، لو أعرف مكان حجرته، لو أتذكر شكل جارته التي سحبتني إلى سريره لهدأت روحي، أحتاج إلى نظرة عيونه؛ لأنه الوحيد الذي يستمتع برائحتي، ويفهم لغتي.

هاجت الكلاب والأطفال لرؤية هالتي، وبحلق الجالسون في المقاهي والباعة لمروري، مرددين ببلاهة: "ازيك يا نعيمة، عاملة إيه يا مهبولة، هتتجوزي إمتى يا بت؟ أبوكي رجع من عند النبي ولا لسة؟ أمك عاملة إيه يا مجنونة؟".

أمر من وسط السوق كعادتي، وأجلس بجوار "الفوالة" التي أعطتني سندوتش بطاطس محروقة وتوسلت إلي لأدعو لزوجها وابنها بطول العمر، استكملت سيري وقضمت الرغيف غير عابئة بهروب الناس من وجهي، نادتني امرأة طيبة من بلكونتها: "اطلعي يا نعيمة أنا مستنياكي".

جلستُ أمام شقتها وسط أحذيتها الملونة، أحضرتْ طبقين من الأرز واللحوم، وجلستْ بين قططها إلى جواري، وسألتني عن حالي.

سمعتُ تأوهات وضحكات لبنات صغيرات مفضوحات في الداخل، فبكت المرأة قائلة: "أكل العيش مر يا حبيبتي، أنت ربنا كرمك بعقلك، ادعيلنا يا مبروكة"، نظرت إلى عيني برأفة واستكملت: "اسمي وفاء.. معقول يا بت مش فاكراني".

سلَّم أحد الرجال إلى يديها عدة جنيهات، وركلني بأقدامه ونزل السلالم مسرعًا غير عابئ بالطين الذي ألقاه حذاؤه في طبقي.

نظرتُ إلى عيونها الباكية، وحملت مخلاتي، ونزلت السلالم مستكملة سيري في الحواري الطويلة.

شعرت لأول مرة بعقلي ينفجر في رأسي، وتساءلت على غير عادتي: "أنا مين؟ وليه اتولدت؟ وليه وقع سقف الزريبة على أمي وبهائمها في ليل المطر؟!!".

تذكرت وجهها الغارق في الدماء، وجذع الشجرة مغروس في بطنها، وصرخت وصرخت، فالتم الناس حولي، ولفوني في دائرة مخيفة محاولين تطبيب جروحي.

شعرتُ بالنور يملأ قلبي؛ إذ كيف سرتُ كل هذه الليالي من أمام منزل أمي إلى هذا الحي؛ ولماذا استوطنت هنا، وشعرت بالراحة أثناء نومي في خراباته ووسط كلابه؟

جلستُ وسط الشارع أعدد، قطعت الطريق على المارة، جروني من شعري ونزعوا ملابسي وطلبوا من السماء هدايتي، طيبوا خاطري، فانتقلت من مكاني، وتركت بعضهم يمر ويستكمل سيره إلى جِحره المخفي بين الجدران.

نظرتُ في وجوههم مفزوعةً، وأمسكت بأقدامهم المتسارعة، ونهشت ملابسهم، وتمددت بمكاني وسط الشارع كخرقة، كأن هذه البقعة هي ملاذي الأخير، ونطق لساني على غير عادتي: "لن تطردوني من أرضي.. يا أنجاس".

أحاطوني بحنانهم، وألقوا عليّ بأرغفة اللحم والجبن والفول النابت، ووضعوا بحجري بعض الفضية.

شعرتُ بحزنهم يغرق روحي، فقمت على غير رغبتي من وسط دوائرهم، واستكملت سيري إلى بقعتي الآمنة بجوار النهر.

خلعتُ ملابسي ونزلت المياه عارية؛ لأغرق في صقيعها الأزرق، غرقت وغرقت لأوقظ كلب البحر الذي يسمع خفقان قلبي، ويأتي مع الريح ليفجر كيس دمائي المخفي في بطني.

خياش

(١)

خانتني غرزتي، ومسلَّتي ضاعت، ولم أعد أرى مكان الإبرة، أخرج من الدكان وأنظر إلى الشوارع، لا أحد في صمت الليل سوى السكون وضجيج المقاهي.

الفجر قارب على الأذان، وأنا ما زلت معلقًا في الفضاء، لا مكان تحت السماء سوى سقف دكاني، وبعض الأجولة التي أحط عليها بجسدي لأرتاح من تعب النهار.

الليلة طويلة، لم أمر في حياتي بمثلها، من يشفيني مِن الشك الذي عشش في رأسي؟ أتجه مرة أخرى إلى دكاني، وأرفع صاجه القديم فيزمجر مكتئبًا، أعاين عجلتي، وأحصي الأجولة التي وزعتها وجمعتها من الطوابين والعلافين، أضع عشرة أجولة فوق بعضها، وأغطّ مرة أخرى في أحلامي.

تأتيني زوجتي بنهدها العاري، وتعيِّرني بفقدان ذكورتي، تلطم خدودها وسط الشارع لتعلن للمارة تفاصيل عجزي، يقترب "سمبو" موظف التموين من عينيها ويحملها بين يديه ليطمئنها قائلًا: "ما ينفعش كده يا انشراح، خلاص يا عفيفة اللسان، مش هيخش عليكي تاني".

تستجيب لندائه، ويختفيان بمدخل البيت، وينظر الجيران إلى مؤخرتي ويتأسون لحالي، يطبطبون على ظهري، وينفجر "الزراب" ضاحكًا، ويشد كلافه ويمشي وسط الشارع مقهقهًا على خيباتي.

يتأسى "ناجي المصراني" لمصيبتي، ويركلني "الشيخ عليش" بقدميه صارخًا: "النخوة ماتت في الرجالة يا ناس!".

يوقظني أذان الفجر من كوابيسي، فأرتدي مداسي وأذهب للجامع، أتوضأ في صمت وأطهر نفسي، وأدخل ساحته الواسعة، أناجي رب العزة أن يأخذ روحي.

أتركهم يتركعوا ويسبحوا، وأستمر في مناجاتي: "لماذا خلقتني يا عليم؟ لماذا أعطيتني الذرية والعمل الصالح؟ لماذا أعجزتني وفضحتني أمام أهلي وجيراني؟".

إني راضٍ بقضائك، لكن ألا يكفيك ما حدث كي تريحني من قهرتي على ابنتي الوحيدة؟!

أنهى "الشيخ عليش" صلاته بدعائه على الكفرة بالموت، ورددنا جميعًا وراءه: "آمين آمين"، وسلمت على "الحاج سعدون"، وخرجت من الجامع مستمتعًا بنسيم الصبح وزقزقة العصافير.

أمر على شقتي حائرًا، وأنظر إلى أنوارها المتسحبة من شيش بلكونتها، وأشعر بميوعة زوجتي ونشوتها في حضن موظف التموين.

أتلصص سعيدًا على أنفاس ابنتي، وأحمد ربي على تركها في حجرتها المغلقة كي لا تسمع صرخات أمها الملتاعة بأحضان عشيقها.

أستكمل سيري، وأدخل الدكان مرة أخرى، أشد الخيوط على النول وأغرس مسلتي في الشلة، وأفك عقدتها، وأبدأ في نسج الشال الأحمر الذي سأهديه لـ"نعمة" يوم زواجها.

أقدامي تشققت، وعيوني جفت دموعها، وأنا أقف على الحافة الأخرى من الحياة منتظرًا رضاءها، وقبولها العيش في كنف قلبي العاجز.

لم تتفهم كلام القس بأن عجزي قدر من الله، ولا مفر أو مهرب من أحكامه، واستمعت لصوت موظف التموين الذي حرر ضدي مائة محضر لعملي دون استخراج تراخيص.

جرني بقسوة إلى المحكمة، ومرمط بكرامتي الأرض وسط اللصوص، وأفشى سري للمحابيس، فعيّروني ولم يرحموا شيبتي وضعفي، وعاقروني على الملأ كخنتة.

هجر موظف التموين زوجته، ونام بشقتي ليل نهار، وسخر من كرامتي وعجزي، وسط سهراته مع "الزبال" الذي قايضه على زوجتي مقابل أطباق الكشري التي يرسلها صاحب المطعم إلى عماله كل يوم.

رفضت "انشراح" نصائح "الحاج سعدون" بعودتي كظل حائط، وفتحت بيتها لأمثال "سعد الزراب" الذي أرسل أكياس اللحمة والكبدة لشقتي ليروي عطشها من دمي المراق.

قبلتْ خطوبته من ابنتي طمعًا في زريبته، وطردت "ضاحي" ابن "الفوال" الذي عشق التراب الذي تسير عليه صغيرتي.

قابلني الفتى ليلة أمس وبصق على وجهي، ونعتني بالمرة، لفشلي في إعادة الصرامة داخل بيتي، فسخ خطوبته قائلًا: "اكفي الإدرة على فمها تطلع البت لأمها!".

ودون وداع لطعني بالكف مستكملًا: "ده أنت كلب ولا تسوى".

لولا ابنتي ما حزنت على فقد "انشراح"، ولا عبأت بعلاقاتها ومشيها البطال، ولكن كيف أترك وحيدتي وأهرب؟ يجب أن أركن هنا حتى أراها وأشكو لها حالي.

ستستمع لصوت بكائي، وترحم شيبتي، وتأخذني بحضنها، ونرحل من الحي برفقة "ضاحي" الذي سيرأف بحالي ويتراجع عن قراره، ويفتح قلبه لطيبة صغيرتي، ويحميها من قسوة قلب أمها ونباحها.

في هذا اليوم، سوف أذهب للمدافن، وأنزل بإحدى المقابر، وأموت وحيدًا راضيًا بقدري.

(٢)

مهنتي بارت، ولم يعد دخلي يكفي لشراء لباس دمور، اعتمد الناس علينا في الماضي، واشتهر والدي بصنع البرادع الفخمة للحمير، والعبايات الصوف للعُمَد، وافتخر الجميع بمنع نسيجه من دخول البرد إلى العظام.

أطلق عليه الجيران لقب "خياش"؛ لأنه يخيط ملابس البشر والحيوانات، ويقيف فراغاتها بخيوطه التي تسد الرتوش وتزيلها.

لم يتزوج بعد وفاة أمي، وظل جليس كرسيه الصغير يراعي حاجاتي، عمل في دكانه ثلاثة صنايعية، ولم يتمكنوا يومًا من إنهاء أعمالهم في صنع أحمال وعدد الجمال، وغبطان الحمير وأخراجها.

طوال حياته عشت مع "انشراح" كملك، أعاشرها كل يوم بروح جديدة وشبهتني بالمسمار.

وحين رزقني الله بابنتي "نعمة" أقام والدي ليلة لم ينسها أهل الحي، ذبح عجلًا للشيخ أبو مسلم، وأطعم مساكين الضريح سبعة أيام متواصلة.

ومات من الحسرة عندما ظهر المكن، وانتشرت عربات الوحل، واختفت الحمير والجمال والأرض والمواشي، وتركني وسط أنواله وخيوطه ومسلاته وحيدًا، وبعد أسبوع من رحيله، باعت "انشراح" منزله واستأجرت الشقة كي نتمكن من تجهيز "نعمة" لعريسها.

وعندما طالني العجز؛ بسبب جلستي أمام الأنوال ساعات طويلة أصنع الجواكت الصوف الملونة، طردتني من الشقة لرفضي السفر إلى بلاد الغربة والعودة بأجولة النقود والقمصان الملونة؛ لأكون بجانب ابنتي روح الحياة.

ساعدني "سعدون" على الاتجار في الخيش وصنع الأجولة، ورغم دخلي القليل، لكني تمكنت من سد رمقها، وإرسال ما فيه النصيب لاستكمال تربية وحيدتي.

عيّرتني للجنيهات القليلة التي أرسلها كل أسبوع، فاقترح "الفوال" بيعي لأنابيب البوتاجاز وسط المنازل، واتفق مع صاحب المخزن على تسليمي الأنابيب صباح كل يوم، أسرح بها في الشوارع مع مفتاح كبير، وأدق على صاجها، حتى يرزقني الله بعشرة جنيهات صحيحة، أسلمها إلى جيب "الفوال" ليعطيها لـ"انشراح" أثناء شرائها الفول والبيض المسلوق كل صباح.

لكنَّ انزلاق غضروفي منعني من ركوب العجلة، فاقترح "سعدون" و"ناجي المصراني" بيعي لثمار الفاكهة أمام دكاني، اتفقا مع بعض التجار ليسلموني قفصين جوافة، وحين أنتهي من بيعهما، أسلم التاجر ثمنهما، وآخذ نصيبي وأرسله مع الحاج إلى "انشراح"، ومع ذلك كانت تشتكي من بخلي وقلة مصروف يديها.

بعت العجلة والأنوال والأجولة، واشتريت فترينة صغيرة أبيع فيها علب السجائر والمعسل، وحين يرزقني الله بعدة جنيهات أرسلها إلى "نعمة" التي رفضت "انشراح" مرافقتي لها على شاطئ النهر، واشترطت شراء إسورة ذهبية أقدمها كعربون وهدية، لتقبل توبتي وتوافق على رؤيتي لصغيرتي كل أسبوع ساعتين.

عدت لا أفكر كل يوم إلا في مصدر الذهب الذي يمكنني باقتنائه العودة إلى شقتي، وعودة حياتي من جديد كأب جدير باحترام الجميع.

حين أجد حقيبة الذهب سأطلقها وأهرب مع "نعمة"؛ لأزوجها من ابن "الفوال" الذي أعطيته كلمة قبل فقدي لذكورتي، سآخذهما وأشتري لهما منزلًا جديدًا في بلدة بعيدة لا تعرف تاريخنا، ليعيشا في عالم آخر لا يعيِّرهما بمأساتي.

(٣)

في الطريق إلى المقابر كنت وحدي أستغيث من حسرتي وخيباتي، قلت لنفسي: "لعل في مدافنها ملاذًا أخيراً للونس".

من يسمعني سوى الأموات، لن يعيِّروني، أو يملوا من تكرار شكواي، سأشتكي للعظام والكلاب والقطط، سأشتكي للشيوخ، سأشتكي للورود الذابلة، كي يعود أبي وترأف أمي بحالي وتخفف جراحي.

خرجت حاملًا زجاجة مياه في يدي، وسرت حتى مدخلها الواسع، عمّ الظلام الحالك أرجاء المكان، لم أرتعب واستكملت سيري متجاهلًا نباح الكلاب وعويل القطط، نسيت نفسي، وأزلت التراب من على مدفن أبي، وأزحت غطاءه، ونزلت سلالم التربة مغتبطًا للقائه.

نبشت بيدي وقدمي باحثًا عن آثاره، لم أكترث بصوت الوطاويط وخربشات الحشرات على جسدي، وحين عثرت على إحدى عظامه، احتضنتها وبكيت: "لماذا أتيت بي إلى هذا العالم؟ ومن أعطاك الحق في وجودي وتركي وحيدًا؟!".

كنت متيقناً من شكل عظام أفخاذه وقوستها، حين تركنا جسده على التراب وغادرنا لم نعثر على آثار جثة أمي التي ماتت قبله بعشرين عامًا.

سمعت همسًا وأصواتًا تقترب من مرقدي، فَصَمَتَ لساني وانتظرت، صرخت إحدى النساء بصوت عالٍ: "ارحموني حرام عليكوا"، نعم هو صوت "وفاء" الداعرة، ولكن من أتى بها إلى هنا؟

صعدت درجات سلالم المقبرة ممسكًا بعظمة أبي، ورأيت وجهي "سمبو" موظف التموين و"سعد الزراب" يقهقهان على ضوء القمر، ومن بعيد لمحت سيارة "الزراب" تقف في انتظارهما.

يفعصان جسدها بجنون، وتتأوه مستغيثة بالملكوت، يلتهمان لحمها ولا يشعران بوجودي، ودون إرادتي خبطت "الزراب" على رأسه بالعظمة، ووضعت سنها بقوة في أحشاء "سمبو"، وأفلتت المرأة من بينهما مذهولة عارية، وهمست: "الخياش.. مين اللي بعتك ورايا؟!".

منذ تلك اللحظة تغيرت حياتي؛ لاعتقاد المرأة أن الله خلقني في هذه الدنيا كي تتوب على يدي من روائحهم.

غطت نفسها، وجلست وسط دمائهما النازفة تتحدث عن تاريخها، وعلاقاتها بـ"الأعور" وصاحب مطعم الكشري و"الكلاف" و"الزبال" و"الفران"، الجميع زار شقتها وعاشرها، ولم يفلت أحد من أحضانها.

انسحبت روحا "سمبو" و"الزراب" أمامنا، ولم نتمكن من مداواة جروحهما، وحينما تأكدنا من موتهما سحبتني وعادت إلى الحي ممتنّة بصيدها الثمين.

جمعت كل ملابسها وأحذيتها في أجولة قديمة احتفظت بها في دولاب مدفون وسط الحائط، ألقتها في بير السلم كي يحملها الزبال في الصباح ويحرقها في الخرابة.

حين قارب الليل على الانتهاء، غطت شعرها، وارتدت ملابس بيضاء، وظلت ساهمة أمامي فترة طويلة، بكت بحسرة منهارة، وقالت: "يا مبعوث الأرض.. كيف أستكمل حياتي؟". تركتها تهمس للسماء، ودخلتُ في نوبة نوم عميقة.

في الصباح أعلن المسجد موت "سعد الزراب" ورفيقه "سمبو"، ورغم الحسرة على فقدهما، لكن "سعدون" ابتهج لارتياحه من مضايقات موظف التموين وتحريره المحاضر ضده.

طرد أولاد "الزراب" "رمضان الكلاف" من الزريبة، وباعوها للحداد ليصنع فيها الشبابيك والأبواب، وحولت "زوجة سمبو" شقته إلى بيت دعارة تستقبل فيه الرجال طوال الليل، وعند الفجر تطردهم جميعًا، وتستحم بماء الورد لتتطهر من رائحتهم، وتنام آمنة.

ومن حسن حظها أن الله لم يرزقها بأطفال، فعاشت حياتها بين أحضان رجال الحي، منعمة في النشوة والعشق.

الوحيدة التي بكت بحرقة على فراقهما كانت زوجتي "انشراح"، خرجت وراء خشبتهما المرفوعة على أكتاف الرجال، لإعادتهما إلى المدافن التي قتلا فيها، وعددت رحيلهما وسط دهشة النساء من بجاحتها.

في اليوم نفسه، ذهبت إلى "الفوال" كي يقبل زواج "ضاحي" من "نعمة"، لكنه رفض وعيّرها بتاريخي.

تحدثتْ مع "سعدون" ليوفر لها عملًا بالفرن، لكنه اعتذر لهياج "العجان" و"الفران" بسبب نيران الفرن الحامية، ويمكنهما افتراسها حال غيابه بالمسجد أثناء صلاة الظهر.

سعدت بمعرفة سر غرامهما بالنساء، وانتظرتهما خارج الطابونة بعد نوبة العمل، للاتفاق معهما على زيارتها.

وتهامس أهل الحي بصعودهما إلى شقتي في المساء، ومعاينة جسد زوجتي، رفضا امتطاءها لكرمشة فرجها، فعرضت ابنتي عليهما، فامتطياها في حجرتها، وناما الاثنان في أحضانها على الأرض، وظلت "انشراح" واقفة أمام الباب تنتظر انتهاء مهمتهما.

وبعد افتراسهما لـ"نعمة"، وجدا "انشراح" بقميص نومها تنتظرهما بالمعطرات والمساحيق التي وضعتها على وجهها، خافا من عيونها وهربا من الشقة، ولم يعودا إليها مرة أخرى بعد افتتاح "زوجة سمبو" شقتها على البحري أمام الرجال الذين ما زال عندهم ذرة رجولة.

رغم أني اعتكفت بشقة "وفاء" ستة أيام أصلي وأحمد ربي على نجاتي، وسعدت بجلوسها إلى جواري، والنظر في عينها أثناء حكيها عن المواجع والأحزان والحسرة التي طالت حياتها وحياتي.

واستني كأم، وطبطبت على ظهري الميت، ولم أشعر بأصابعها الطرية، وغمغمت بجمل وحكايات أخرى كثيرة عن تاريخ الحي، مؤكدة أن صاحب مطعم الكشري جاء في ليلة غبراء مستغيثًا بـ"سعدون" الذي تلقفه وشغله في طابونته موزعًا للدقيق والخبز.

يقال إنه سرق صاحب الطابونة واختفى شهوراً في أماكن بعيدة، وعاد إلى الحي بملابس نظيفة ووجه لامع، واستأجر محل الكشري من "الزراب" ووضبه وفرشه، واستأجر عمالًا

وصنايعية أغرابًا، ليغسلوا الأرز والمكرونة والحمص ويسلقوها، لكنه أشرف بنفسه على صنع الصلصة وقلي البصل وأعجب الناس برائحة أطباقه.

وحين ذاع صيته وارتفع نجمه بين يوم وليلة، اشترى ثلاثة منازل وأجرها للأغراب، وأصبح يلعب بالجنيه وفروج النساء المطلقات اللائي يزرن شقته بعلم الجميع.

في اليوم السابع، وبعد حكاياتها الكثيرة عن جيراني، حمدت "وفاء" ربها لأنه رزقها برجل شهم مثلي خلَّصها من شرور العالم.

سمحتْ بنزولي للشارع بشرط ألَّا أتأخر، وحين شاهدت ابنتي برفقة صاحب مطعم الكشري تنظر من البلكونة عارية سقطت على الأرض.

وانهارت روحي عاجزة حين شاهدته يسير أمامي بوجهه اللامع وملابسه المكوية، تجاهل الجمع الذي أحاطني ليواسيني، وبصق على الأرض مبتسمًا، وتركني مغلوبًا على أمري.

(٥)

حملني المارة وتركوني داخل دكاني، ونادوا "سعدون" ليغيثني، وجاء الرجل متلهفًا لمعاينة بلوتي، ورغم سماعي لصوته الحنون، لكني لم أتمكن من الرد عليه، كنت أرغب في القيام للذهاب إلى شقة "وفاء"، لكني لم أتمكن من الحركة.

قدمي ويدي تصلبت، ولم تنفع علاجات "ناجي المصراني" الذي أعطاني حقنة ضخمة لإذابة الجلطة، لكنها لم تفعل شيئًا سوى إدخالي في نوبة نوم طويلة، عادوا جميعًا إلى منازلهم، وتركوا ضلفة دكاني مفتوحة.

في الصباح، مر "الفوال" من الحارة وبكى لحالي، وضع سندوتش الفول بجواري، وتركني ليستكمل عمله وحياته.

عندما وافقت على زواج وحيدتي من ابنه، اشترطت عليه ألَّا تقف "نعمة" على العربة وسط الشارع.

استعدت نفسي، وتحسرت على حالي ورزقي بامرأة وهبت فرجها للجميع، حاولتُ تحريك يدي لأمسك السندوتش، لكن محاولتي باءت بالفشل، كاد الجوع والعطش يقتلني، ولم أتمكن من سد رمقي رغم وجود الماء والطعام إلى جواري.

تحاملتُ على نفسي، وطردت غريزتي، لكن شيئًا ما مرر حلقي، ليس لتخيلي زوجتي وابنتي عاريتين في حضن صاحب مطعم الكشري، ولكن لحرماني من "وفاء" التي لم تعرف حتى الآن ما حدث لقلبي.

أعرف أنها لن تنزل من شقتها للبحث عني، أو الانشغال بمصيري بعد دخول النور قلبها؛ إذ قررت بعد حادثة المقبرة أن تذوب عشقًا في رحمته خلال الفترة المتبقية من حياتها.

ظللت طوال اليوم وحيدًا، وتبولتِ دون إرادتي على نفسي، وخريت لعدم تمكني من الإمساك بنفسي، وفي نهاية اليوم مر عليّ "ناجي المصراني" و"الحاج سعدون" و"الفوال"، وبكوا على حالي.

حملوني من يدي وقدمي، ووضعوني على كرسي متحرك، وحاولوا رفع رأسي، لكني عجزت عن رؤيتهم.

ملأ المخاط وجهي وأنفي وشعرت بقرفهم من رائحتي، لكن الرحمة جعلتهم يمسحون فمي، وسمعتهم يتفقون مع بعضهم على عدم تركي وحيدًا، حتى لا أموت كالكلب.

جلسوا بجواري، وقطعوا سندوتش الفول لقطع صغيرة، ووضعوها في فمي، رفعوا زجاجة المياه إلى حلقي، وحين انتهوا من عملهم، تسحبوا إلى منازلهم وتركوني أنعي في صمت.

رغم بلوتي، لكني شكرت الله لعدم حرماني حاسة السمع.

ظللت طوال الليل أسترق السمع لأصوات الجيران من خلف الجدران، كانت "انشراح" تتشفي في حالي رغم قهرتها على انقطاع اليومية التي كنت أرسلها صباح كل يوم مع "سعدون".

شعرت بصوت "محمد الزبال" يقود فرقته وسط الليل، باحثين عن حقائب الذهب وسط أكياس القمامة، وسمعت صوت القس يبكي وسط باحة الكنيسة على الدنيا التي عدمت الخير.

تصورت نفسي أصلب طولي وأدخل الجامع، وأجلس بجوار "سعدون" في الصف الأخير، أبكي وأعدد دون شعور أحد بجروح قلبي الميت.

سمعت صوت خروشة بالدكان، لم أتبينها في البداية، لكني شعرت بالحية تمر من على رقبتي، نظرتْ إلى عيني واستمرت في سيرها، لتنام في مخبئها خلف بعض الأجولة المتبقية من ميراث والدي.

اقترب مني وجلس بجواري، ونظر إلى عيني حزينًا، لحس قدمي ويدي ورقبتي، ونظر مرة أخرى إلى أصابعي المتجذمة، ونبح بصوت خفيف آملًا في يقظتي، وحينما تيقن من موت أعضائي، جلس تحت قدمي وحيدًا يرأف بحالي.

قام مفزوعًا مرة أخرى وجرى وراء إحدى القطط في الشارع، وعاد مرة أخري سعيدًا يهز ذيله.

اقترب مرة أخرى من جسدي الميت، وظل يلحس قدمي ويدي المتدلية ورقبتي المحنية طوال الليل، وعندما ظهر نور الشمس وسمع نباح الكلاب يملأ الشارع، غادر وحيدًا إلى الخرابة باحثًا عن رزقه.

مر "ناجي المصراني" على دكاني قبل شروق الشمس، وأعطاني الحقنة، وظل يتحدث عن أولاده الثلاثة الذين هاجروا بعيدًا وتركوه وحده بمحل الحلاقة يلقط رزقه.

حكى عن وحدته بالمنزل المملوء بالعفاريت، وبكي على رحيل زوجته من قبله، لدرجة أني شعرت بعيوني وأنفي يمتلئان بالدموع.

تحسس مقبض الكرسي في صمت، وفتح منديله ومسح خدودي، وحينما رأى "سعدون" يأتي من بعيد، ودعني في سلام.

تهامسا أمام باب الدكان بصوت خفيض، وسمعت "الفوال" ينادي "سعدون" ليسلمه سندوتشاتي، دخل دكاني وأطعمني كعادته، وتركني مع وحدتي، ورحل إلى طابونته ليشرف على عجن الدقيق وخبزه وتوزيعه.

يتحمل "سعدون" ما يفوق طاقة البشر، ويؤوي "الفران" ويواسيه؛ لأنه يعرف أنه طلق زوجته وعاش حياته مسحوراً بنار الفرن، يتجاهل الأقاويل حول عجزه بسبب زواجه من الجنيّة التي خرجت من الفرن ودخلت قلبه لتحرقه، وكذَّب "الفران" هذه الإشاعات وعاقر النساء الدواعر بقلب أحمر خالٍ من الخوف.

عامله "سعدون" كابن عاقٍ يحتاج إلى النصح والمعاملة الحسنة، لتخفيف بلوته، الجميع يعرف طيبة صاحب الطابونة، وقيامه بالمعروف كلما أتاحت الدنيا له الفرصة.

يتحمل قسوة "العجان" وسبه المتواصل للأديان والخالق؛ لأنه يعلم أنه وحيد أبويه العاجزين، تجاهلت زوجته صراخه وتمرده، وعاشت في منزله أسيرة لخدمة والديه معتقدة أن الله سيعوضها في ابنتها الوحيدة.

تركت "العجان" يعاشر الدواعر ويشفي ناره، وهجرته بعد ولادة ابنتها، غضت البصر عن معايرات الجيران، وكسرت شوكتهم كل يوم بإشعال البابور في الحمام، وتجهيز المياه الساخنة لدعك نهود حماتها ومؤخرتها.

وتركت ابنتها تقود الفتيات في لعب الأولى والمساكة، وتمنت الموت بعد زواج "عجينة" ورحيل أم "العجان" وأبيه.

ليت الله يملأ الدنيا بأمثال صاحب الطابونة، لكن المصيبة أن الحي امتلأ بالمحتاجين، ولا يوجد إلا "سعدون" واحد.

(٦)

أدت مصيبتي إلى نسيان "وفاء"، و"نعمة"، و"انشراح"، وأهل الحي.

وبات كل أملي الشعور من جديد بصوت النبض يعود إلى أجزائي الميتة، لم يفهم وجيعتي إلا "الكلب" الذي جلس بجواري طوال الليل بعد مغادرة "سعدون" و"المصراني"، يتحسس بلسانه قدمي ويدي ورقبتي.

حين ضغط على أظافري بأسنانه، شعرت بحركة خاطفة في أصابعي، وتدفق الدم مرة واحدة إلى أحشائي، وتحركت أمعائي على غير عادتها، وسمعت صراخ كبدي وطقطقات أناملي.

فوجئت بأحاسيسي تندفع مرة واحدة، وتقاوم موت عروقي، وتدفق الدم تحت لسان "الكلب" الذي قرر بكل ضراوة إحياء أعضائي بلسانه المحشو بنبض الحياة.

تفككت أصابع يدي وقدمي، وجرت دمائي في شراييني وشعيرات رأسي، رفعت رقبتي فتحركت عروقي، ونظرت إلى الشارع المملوء بالأنوار، وتعجبت من صمت الليل.

دست على مسند الكرسي بيدي، فاستجابت أطرافي، وعدلت نفسي وفردت ظهري، وشعرت برائحة برازي تملأ ملابسي، فاتكأت على يدي التي شعرت بالدم.

خلعت ملابسي، ومسحت أوراكي، وضغطت بأصابع قدمي على دواسة العجلة، فاستجابت مستسلمة لإرادتي.

نظرت حولي في الدكان، لم يكن هناك إلا "الكلب" الذي راقب حركة الحياة العائدة في سعادة، اقتربت منه وحاولت احتضانه، وشعرت بدموعه تسيل على الأرض، مسحتها بيدي وطبطبت عليه، وبكيت مع نباحه المتقطع بصوت عال.

يا الله، كم أنا سعيد لعودة النبض إلى عروقي! كيف استجاب المولى لدعواتي؟ مسحت أنفي وفمي بأطراف أصابعي، ودرت مرة ثانية لأتأكد من قدرتي على تحريك العجلة التي استجابت راضية، وكدتُ المخاطرة بحياتي والقيام من على الكرسي، لكني ترددت، ولم أستمع لنباح "الكلب" الذي شجعني، فعدت مرة أخرى قعيدًا في انتظار حلول الصباح، لأبهج "سعدون" و"ناجي" بنجاتي.

حينما انطلق أذان الفجر، نظرت إلى الشارع مغتبطًا، منتظراَ حضورهم، لكن غيبتهم طالت.

أدرت الكرسي ونظرت في ركن الدكان، ولم أصدق ما رأته عيني، عشرات السحالي والأبراص والثعابين الميتة التي مزقها "الكلب" في صمت.

جلس فوق جثثهم يلهث كالغريق، وتساقطت دماؤهم من بين أسنانه، وشعرت بروحه تنسحب منه، أغلق عينيه وودعني سعيدًا بإعادة نبض الحياة إلى قلبي.

أثناء رحيله صرخت بأعلى صوتي في الفضاء؛ كي ينجيه رب العرش، وفوجئت بنفسي أغادر الكرسي وأجري على قدمي لأحتضنه غير مبالٍ بالعجز، لكنه رحل إلى عالم الأموات.

وفاء

(١)

حين أتاني "الخياش" في الفجر بصحبة "سعدون" و"ناجي المصراني" يحكون ما جرى خلال أيامه الماضية، تأكد حدسي بأنه مبروك، وأن روحه المسالمة هي السبب في استمرارنا بالحياة.

نعم الحياة مملوءة بالكلاب، لكن أن يموت كلب من أجل إنسان لا يعرفه، ويضحي بحياته ليحميه، فهذا قول لا يصدقه عقل البشر.

سحبني "الخياش" من يدي، وسرنا وسط الشارع، وأصر على غير رغبة الجميع أن يدفنه مع والده ووالدته، إكرامًا لوفائه.

طاوعه "سعدون" و"المصراني" لاعتقادهما مثلي، بأن بداخله مسّا من الرحمن الرحيم، ساعدناه على تغسيل جثته، ولفها في قماش أبيض أحضرته بنفسي من عند "القماش"، ووضع كلبه داخل خشبة الميتين، وسرنا معه إلى قبر والده ودفناه بجواره.

بعد عودتنا من المدافن، وضع دككًا وكراسي أمام دكانه، ووقف مع أصحابه يأخذون عزاء صديقه، وجاء "الفوال" و"رمضان الكلاف" و"العجان" و"الفران" و"القماش" والجيران، يسلمون عليه ويباركون عودة صحته، ويطيبون خاطره في مصرع كلبه.

وضع أكوام الثعابين والسحالي الميتة وسط الشارع، ليدلل على إخلاصه، وظل يحكي ويبكي وسط أسى الناس وحزنهم، لكنهم جميعًا كانوا سعداء بعودته صالبًا طوله بينهم، المدهش أنه لم يسأل أحدًا عن امرأته أو ابنته، واعتقد كثيرون مثلي بأنه نسيهما تمامًا.

لبيت طلبه، وسلقت الفول والبصل في حلة كبيرة أحضرتها من شقتي، وعبأتها مبتهجة في عشرات الأرغفة التي أحضرها "سعدون"، ووزعتها على المارة، واحتار الناس من سماعي أوامره كأنني عبدة وهبها الله لقلبه ساعة رضا.

حينما أتت زوجته وابنته تعاينان بأنفسهما المعجزة، لم تتمكنا من النظر في عيونه، ورفضتا تسلم أرغفتي، وبصقتا على الأرض وهربتا مسرعتين من أمامه.

لم يتحدث إليهما في شيء، لكنه وقف صامتًا في مواجهتهما، وحينما طال صبرهما لسماع صوته، غادرتا دون أن ينبس لسانه بكلمة واحدة تطفئ نارهما.

اندهشتُ لوجود "محمد الزبال" بين المعزين، اقترب مني وحاول مراضاتي قائلًا: "حرقت أجولتك كلها، لكني احتفظت ببعض قمصانك الملونة"، تجاهلت عيونه ونظرت إلى السماء، فارتعبت أساريره، وودع "الخياش" هاربًا.

مر راعي الغنم علينا، ونظر في غرابة إلى كومة السحالي الميتة، واحتضن "الخياش" مذهولًا من عيون الحيات المدهوسة بأسنان كلبه، وغادر صامتًا.

رحّب وسط دهشة جيرانه بجمع الكلاب التي سارت في صف واحد أمامنا، دارت حول كومة الثعابين الميتة، وهوهوت، ونبحت، ووقفت أمامه كأنها تواسيه، ثم غادرت وسط سكون الكون.

حين انتهي عزاؤه آخر الليل، أغلق دكانه وسار معي وسط الشارع حتى باب شقتي، ودعني برقة، ووعدني بشراء بعض الحاجات من السوق، والعودة قبل ظهور النهار.

ظللت أيامًا وليالي كثيرة أنتظر عودته، وحين طالت غيبته نزلت إلى الشارع أبحث عن طيفه.

(٢)

لم أترك مكانًا بالحي إلا بحثت في أركانه، دخلت الكنيسة والجامع والخرابة، والطابونة والزريبة التي تحولت لورشة حدادة، ودعبست في مخابئها لأعثر على رائحته.

حتى دكانه الذي استولت عليه "انشراح"، دخلتُه رغم سبابها وقيامها بلطعي على وجهي بكفيها، لكن قلبي لم يرتح إلا حين تأكدت بأنه غير موجود لديها.

يئست من البحث والتنقيب عن أثره، وصعدت إلى شقتي حزينة، وشعرت بالأسى وأنا أضع رأسي على المخدة، وأدخل في النوم العميق، وفي الليل جاءني في الحلم "سمبو" و"الزراب" وهما يمسكان السيوف، التف حولهما الناس ولسعوا مؤخرتي العارية بكرابيجهم، ربطوني وسط الميدان وعاقروني رغم قيودي، وحين انتهوا مني، داس "سمبو" على رقبتي وتبول "الزراب" على وجهي، وفتحا المزاد:

من يخرم عاهرة؟!

من يعاقر مومسًا؟!

رفض الجميع شرائي مدعين أني خائنة، ولا يمكن الوثوق بشرفي وعرضي، نظرت إلى عين "سعدون" و"ناجي المصراني" ليأخذاني خادمة في منزلهما، بعد رحيل زوجاتهما وهروب أولادهما، لكنهما بصقا ناحيتي، ولم يغطيا فرجي، وتركاني وسط الكلاب ورحلا إلى حال سبيلهما.

قيدوني من رقبتي، وجروني بحبال بلاستيكية وسط الحواري، وتقدم "سمبو" و"الزراب" جمعهم راكبين الخيول، وطالبا المارة بالعبث في جسدي ونهدي، لفضح ادعاء مومس مثلي التوبة.

وضعوا أصابعهم في فتحة مؤخرتي، وهرع "الفران" أمام الطابونة ليلامس نهدي، لم يتمكن من الإمساك بنفسه، وخلع جلبابه وسط الشارع وأوقف الأحصنة، وغرس قضيبه وسط فرجي النازف.

صرخ الجميع من خلفه، ورددوا بصوت عال: "اديها كمان وكمان.. كيفها يا عجان".

رغم امتعاض وجه "العجان" وصراخه بأنَ "الفران" هو من يعاقرني، لكنهم تجاهلوا صوته، وكرروا نداءهم كي يقوم هو الآخر بهرس قلبي وحرق روحي.

سحبوني حتى الخرابة بعد زفة طويلة، وحينما تأكدوا من رفض الجميع شرائي، نفذوا حكمهم دون سماع آهاتي وحسرتي.

وضعوني بقيودي وسط أكياس الزبالة وأشعلوا نارهم، فسالت عظامي على الأرض، وشعرت برائحة جلدي المحترق وأزيز أسناني التي ظلت شاهدة حتى النهاية على عهري وتقبيلي لآلاف الشفاه.

وفي الصباح قمت من نومي، وارتديت لباسي الأبيض واستعنت بالمبتلي، وسرت في الشوارع باحثة عن ملاكي الغائب.

أخذتني قدمي إلى البقعة المخفية وسط أشجار الموز على شاطئ النهر، وتذكرت لقائي الأول بـ"المهبولة" و"الصياد" الذي عاشرنا عرايا، دون شعورنا بالقسوة أو الغيرة، في هذا اليوم عاهدتني في صمت على الإخلاص.

ظلت الماشطة تزورني بشقتي سنوات طويلة، حتى اختفت دون إنذار.

خلعت لباسي ونزلت النهر، أزيل قسوة وجوههم التي راودتني في أحلام الليلة الماضية، وحين صرخ الصيادون من بعيد لرؤيتهم نهدي، دخلت أشجار الموز وارتديت ملابسي، وعدت إلى الحي مسحورة بالقمر الذي ظهر فوقي رغم سطوع الشمس، ورافقني ليحميني من عيون الكلاب.

حين وصلت إلى باب منزلي، وجدتهم جميعًا يقفون بعيونهم الميتة، سألوني عن وجهتي؟ وأين كنت؟ ولماذا تأخرت؟ كانوا يرغبون في امتطائي كعادتهم، وحينما رفضت وأعلنت توبتي، بصقوا في وجهي قائلين بصوت واحد: "تموت الشرموطة وفرجها عطشان".

صرخ "الفران" قائلًا: "وماله يا شيخة وفاء، ربنا مبينساش حد، إنتي قفلتي وانشراح فتحت، ومرات سمبو شغالة شمال لحد نص الليل، ربنا مبينساش حد يا أحايب يا ولاد المرة".

وحينما رأوا "سعدون" و"ناجي المصراني" يقتربان من جمعنا، أداروا وجوههم بعيدًا وتسحبوا كالكلاب وتركوني مهجورة.

طبطب صاحب الطابونة على ظهري بوجهه المملوء بالنور، وبكى لأقبل عذره وضعفه، وانفرجت أساريره وهو يطالبني بالصبر.

لم أستغرب مواقفه لمعرفتي بتاريخه وسيرته، ووفائه لزوجته الراحلة المعجونة في الحب، لم يبخل على أحد بنصيحة، ولم يرد محتاجًا، وعطف على الجميع بخبزه وقلبه الطيب.

تذكرت أصواتهم وهم يتجمعون كل صباح أمام شباك طابونته، مرددين مآثره أثناء دخوله مع "مهيطل" قبل حضور "الفران" و"العجان"، وقراءة آيات المحبة على أجولة الدقيق، سمعته مرات كثيرة وهو يرقي الخبز ويبسمل عليه قبل مناولته لأيادينا.

ورغم ذلك اشتهر "سعدون" وسط الطوابين بجنونه؛ لأنه آمن بحق الأغنام والكلاب والجواميس في الطعام مثلنا.

اختفوا جميعًا من أمام هالته وهربوا كالثعابين؛ لأنهم يعرفون أنه يسلم "الزراب" و"الزبال" و"الفوال" الدقيق والخبز دون حساب، مكتفيًا بعطاء الرحيم، لم يتمكنوا من مواجهته؛ لأنهم يلجئون إليه ليغيثهم سعيدًا برفع الحمل عن كهولهم.

نظر في عيني وأنا أترجل وحيدة إلى شقتي، وسمعت نبرات صوته وهو يقويني بالصبر على الحياة التي كافأته مثلي بقسوة الوحدة وصخب البلاء.

(٣)

لا أدري لماذا تذكرت أمي التي لقبتني بالسلطانة، وحافظت عليّ كريحانة، تمنت ألا أشاركها مضاجعة الرجال، وحاولت رغم قسوة الحياة أن تمنع المكتوب.

عاشت حياة منعمة في بيت والدها الذي عمل ممرجيا بمستشفى بعيد، وتحول إلى مداوٍ لجراحهم، يعود من عمله كل يوم مملوءا بطاقة النور التي خلبت عقولهم، يفتح حجرته وينظف سريرها الأبيض بنفسه، ليخفف آلام الأطفال ووجع العجائز.

تفنن في صنع محاليل وخلطات شفت آلام الظهر والمغص والمرارة، وحمت الكبد من التليف، خدم الجميع بروحه وطيبته وأخلص في حبهم، فبادلوه العشق والوفاء.

كانت أمي تحكي بقهرة عن وجهه الأبيض، الذي بكى دماء حين رحلت جدتي، وتفرغ لتربيتها وحياتها.

زوجها لزميله بالمستشفى، ومات أبي بعد أسبوع من ولادتي وسماني والدها باسم جدتي، وعشت عشر سنوات بالجنة في كنفه.

حين مات، دار وراءها كلاب الحي ليتزوجوها، ورفضت لتفرغها لتربيتي وإخلاصها لقلب والدي، وعندما احتاجت إلى ثمن الحليب لتبلل جوفي، ولم تجد في بوكها خردلة لشرائه، زارت محلاتهم ومقاهيهم تسألهم عن رد الجميل.

انتهزوا الفرصة وباغتوها بتلصصهم، وطعنوا في شرفها، واضطرت في النهاية إلى القبول بوجودهم في حياتها، حتى تعودت حضورهم إلى شقتها كلما احتاجت إلى ثمن الرغيف، وباتت وصيفتهم التي تخفف من أوجاعهم ومآسيهم.

حاولت بكل الطرق حمايتي من شرر أعينهم، وأخفتني في الليالي التي يزورها فيها رجال الحي عند جارتنا، وتفهمت الجارة مشاعرها الطيبة، وعاملتني برفق وخافت على كابنتها.

وفي إحدى المرات تركتني بحجرتها وحيدة وذهبت إلى السوق، فوجئت بدخول زوجها دون إحم أو دستور إلى غرفتي، وبرك على جسدي ودهس كلابي وقططي القطنية، ومزق ملابسي والتهمني كمضغة.

لم يرحمني من جنونه سوى صراخ الجارة التي ماتت في الليلة نفسها، لفشلها في حمايتي وإخلالها بعهدها المقطوع مع امرأة وحيدة تقتات عيشها من فتح فرجها للكلاب.

فقدت أمي شهيتها بعد هذه الحادثة، خاصة أن زبائنها تكالبوا على نضارتي، وفعصوني في الأركان، وحينما هدَّها التعب وملأت الحمى جسدها، حاولت طرد زبائنها، لكنني رفضت، رغم صغر سني، وقمت بممارسة العشق معهم على نفس سريرها.

ماتت حزينة لنكثها بوصية جدي ووالدي بتعليمي مهنة الطب، رحلت وتركتني وسط أحضا ن الرجال الذين ابتكروا أوضاعًا جعلتني أتمنى الموت على قضبانهم، أذهلتهم ببراءتي، ورفضت بعضهم أيامًا كثيرة، لدرجة أن الكلبين اللذين قتلا في المدافن على يد "الخياش"، خطفاني لينتقما من داعرة تفتح فرجها للجميع، وتتأفف من رائحة عرقهما وملابسهما الغارقة في الروث.

أخذت دشًّا ساخنًا، وقضمت رغيفًا مملوءًا بالجبن، وجلست وحدي في البلكونة أراقب أجنحة الحمام، وأرتوي بغمغمته التي ملأت السماء بالطهر والبراءة.

رغم أني كنت بكامل وعيي، لكني فجعت لمنظر الأهالي الذين قيدوا "مهيطل" و"المهبولة" مع بعض الكلاب، وهتفوا تحت بلكونتي مرددين بفخر أنهم سوف يزفونهما الليلة أمام ضريح سيدي أبو مسلم.

نظرت "المهبولة" إلى وجهي وصرخت مستغيثة، استغربت من وجود القس وسط تجمعهم، الوحيد الذي شعرت بقلبه المملوء بالرأفة، كيف طاوعه عقله على السكوت على جر "المهبولة" و"مهيطل" وسط الكلاب؟!

تناسى طيبته وزهده، ولكز "المهبولة" على رأسها بعصا رفيعة أمسكها في يديه؛ الآن يأخذ هو الآخر بثأره بعد هجران زوجته وابنه، ورضوخه لـ لمعيش وحيدًا كالكلب بين جدران الكنيسة.

زرته مرات كثيرة ولم ينظر إليّ بعين خبيثة، فكيف أقنعوه بمباركة هذه المأساة؟ يا ربي، كيف يمشي معهم ويقود جنونهم؟ رغم قيامه كل فجر ليغتسل ويتطهر ويصلي ويشمر أكمامه لينظف الدير ويسقي زرعه، ويتابع المجذومين والخرس والعميان بحجرته تحت الأرض التي يسميها بيت الرحمة!

أكاد أسمع صوته يوم جلوسي بجواره، أشكو حالي ورغباتي ونزواتي، بكى بصوت عالٍ، وحكى عن زوجته التي تأتي إليه بالحلم لتعاشره، وإرضاء لغرورها يزورها صباح الحلم بشقتها ويبكي بين أحضانها، ويبوس أقدام أبنائه ويتركهم عائدًا للدير.

شاهدته يضحك ويبصق في وجه "مهيطل"، ويعانق الشيخ ويضرب "الكلب" و"الكلبة" بعصاه على ظهورهما.

عندما أطلت النظر إلى وجهه كي يراني ويستعيد نفسه، رمقني الشيخ، وشعر بانقباض قلب القس، فنظر ناحيتي في غضب، وأمر الجموع بجري معهم في القيود، وفي لحظة خاطفة صعدوا السلالم، ووضعوا السلاسل على رقبتي، وسحبوني كخطية وسط تهليل الجموع لانتصارهم على عجزي.

(٤)

صعدت "زوجة سمبو" و"انشراح" على منصة أقاموها سريعًا بجوار الضريح، ونادوا على المارة ليدخلوا السيرك المنصوب.

وضعونا بجوار خيمة الداعرات والفتيان المخنثين، حتى انطلاق لحظة البداية، فوجئت بتدفق باعة البمب والبلالين والمراجيح ورجال الحي وأطفاله داخل الحلبة التي شيدوها وسط الساحة وملئوها بالكراسي.

جلست "زوجة سمبو" عارية الصدر على ترابيزة صغيرة أمام الحلبة، تنظم دخول الجمهور وتسلمهم التذاكر وتتلقى الثمن.

تركوا ممراً ضيقًا لمرور الرواد، وشيدوا مكانًا مرتفعًا وسط الحلبة، وأحاطوه بالحبال المتينة وألقونا في داخله كي يستمتع الحاضرون بهالتنا قبل بدء الحفل.

سمعتهم يتفقون على برنامج مثير ابتكرته "زوجة سمبو" لعرض مهازلنا طوال ليالي المولد، وأعلنت "انشراح" تفاصيله وسط ذهول المريدين من خفة جسدها وصوتها العذب.

امتلأت الكراسي داخل الحلبة، ولسعوا "الكلب" و"الكلبة" بكرابيجهم، فصرخا ونبحا وجلسا في الركن عاجزين.

طلبوا من "مهيطل" معاشرة "الكلبة" كما كان يفعل في الخرابة، وحين رفض أو ادعى عدم الفهم، لسعوا ظهره بالكرابيج، فاستدار وأخذ "الكلبة" في حضنه وأدخل أصبعه الوسطى في فتحتها.

نظرتْ حزينة إلى عينه وفهمت إشارته، لفت حول جسده وتوقفت بين قدميه، وعرته ولحست قضيبه وسط تصفيق الجمهور وتهليلهم من عقل الكلبة الفاسق.

وحين قامت "المهبولة" من نفسها بخلع ملابسها قطعة قطعة وإلقائها عليهم، ذهلت وجوههم، وهمهموا كالجرذان، وركبوا فوق بعضهم مندهشين من عهر امرأة ظلوا طوال حياتهم يلقبونها بالعبيطة، دارت في الحلبة كأميرة، ورفعت يديها ولوحت في فخر.

عرضت نهدها وضغطت عليه، ومصت حلمتيها ببراعة، واحتضنت الكلب الأسود ولحست فمه وقضيبه، فانتصب وسط ذهول الجميع، نامت أمامه على الأرض مستسلمة، ونادت عليه بعينيها وشفتيها مستغيثة، فاقترب مستجيباً وأدخل قضيبه المنتصب في فتحتها، وانتحب كالميت وسط هياج الحاضرين.

حينما جاء دوري، أمرت "انشراح" "الفران" بالصعود إلى الحلبة، وسط انبهار الجماهير التي هللت لقوته، دار ورائي عدة مرات، ثم خلع ملابسه وهجم على جسدي في خفة.

زنقني في أحد الأركان، وهبر نهدي، ومزق ملابسي، ورفعني عارية في الهواء بيديه المحروقتين كالفرخة المذبوحة.

غرس عضوه في مؤخرتي، وسط صرخات ونداءات وعويل ونباح المجتمعين، ونظرت "المهبولة" و"مهيطل" إلى عيوني، ودعوا الخالق أن يرحمنا من هؤلاء الذئاب.

لم أصدق وجوده في تلك اللحظة، نعم هو الشيخ "عليش" الذي يحترم الجميع حضوره، وقف بعيدًا فوق أسطح المنازل، يستمتع بعقاب أمثالي مع الكلاب والأنجاس.

تجاهل الجمهور صراخي ونشوة "الفران"، وأشاروا إلى وجه الشيخ، بادلوه التحية، وسمعتهم يحكون عن مآثره وزهده.

نظروا إلى عينيه الباسمتين وأشادوا بقوته، تنحنح أحدهم ناظرَا إلى وجهه البعيد قائلًا: "يكفي أن يدوس على يديك ليفعص أصابعك دون رحمة"، وانبرى جاره متجاهلًا مرارتي وآهات "الفران" قائلًا: "لم تعش له امرأة رغم زواجه من عشر نساء وإنجابه منهن".

استكمل آخر مبتئسا من دموعي الحائرة: "امتلأ بيته بالبنين والبنات، وحين عاقر إحدى بناته في أحلامه، توجه إلى الجامع وجلس وحيدًا يبكي، يومها شاهد الفران دموعه فجلس بجواره يواسيه، وشعر بألمه، وزوّجه في نفس الليلة من ابنته عجينة رغم صغر سنها".

نعم، يعلم الجميع بأنه شرم "عجينة" نصفين، رغم عمره المتقدم ووزنها الزائد عن مائتي كيلو، واضطرت أمها للذهاب إلى "ناجي المصراني" ليداوي جروحها، وظلت بمنزلها عشرة أيام حتى روضتها وأهلتها لمعاشرة الشيخ المبروك.

قام "الفران" من على جسدي عارياً، وهلل الحاضرون، ورفع يديه مشيراً بعلامة النصر، ودقت الطبول تعلن انتهاء برنامج الليلة الأولى.

تركونا ننزف على أرضية المكان المرتفع الذي حبسونا بين حباله، وانشغلنا مثلهم بالأنوار التي اخترقت السماء ابتهاجا بميلاد سيدي أبو مسلم.

(٥)

انطلق أذان الفجر، وأعلنت أجراس الكنيسة موعد الصلاة، أطفئوا الأنوار وتركونا وسط الحلبة نغرق في قلة حيلتنا وعجزنا، ودون إرادتنا، اقتربت أجسادنا من بعضها البعض، وتداخلت أرواحنا على ضوء القمر.

ولم أشعر بوجودي أو مكاني، ونمت على صدر "المهبولة" التي احتضنها "مهيطل" كأمه، ودخل "الكلب" و"الكلبة" في بقايانا، بكيا على صدورنا العارية حتى لفحنا نور الشمس في الصباح.

سمعتهم يتصارعون على إيراد الليلة الماضية، وأخرجت "انشراح" سكينًا من قلب الترابيزة التي جلست عليها بمدخل الصالة، وهددت "زوجة سمبو" بقتلها حال مناقشتها مرة أخرى في معرفة رصيد المتعة.

وسط صراخ النسوة، اقتربت المرأة التي تقود بيت الدعارة من هالة "انشراح"، وهددتها بإشعال النار في صالتها لهروب زبائنها الليلة الماضية من أحضان فتيانها وفتياتها.

في تلك اللحظة، أشارت المرأة بأصابعها المملوءة بالخواتم لصبيتها بتكسير الحلبة.

لطعت "انشراح" على وجهها بالكف، وخطفت السكين من يديها، وصعدت إحدى فتياتها إلى مكاننا المرتفع وسط الحلبة، وفكت قيودنا وأطلقتنا.

بكت القوادة واحتضنتنا، ورأفت بحالنا وصرخت من قلبها: "سامحونا"، امتلأت روحها بالغضب، فأمسكت بسكين طويل ومزعت القيود التي علقونا وسطها، تجاهلنا صراعهم حائرين، وجرينا وسط الشوارع كالسبايا.

نظرت ورائي فشاهدت "الكلبة" و"الكلب" و"مهيطل" و"المهبولة" يبكون، وينادون من أعماقهم لأنتظرهم.

انتهزنا فرصة العركة، وهرولنا خارج الحي سعداء بنجاتنا من الليالي المرعبة.

سطعت الشمس فوقنا، وتوجهنا دون إرادتنا إلى النهر، وسرنا بين أشجار الموز، آملين الوصول إلى البقعة الآمنة، عاقنا المطر المنهمر من السماء، وأغرقت السماء ملابسنا وامتلأت أقدامنا بالوحل.

وقع "مهيطل" في الطين، وشدته "المهبولة" وساعدها "الكلب" و"الكلبة"، تساند عليهم وصلب طوله، ودارت عيوننا وسط الوحل باحثة عن مخفى آمن.

عندما وصلنا إلى البقعة، لم نجد الشط الذي كانت مياهه تدفئ أرواحنا وتطهر أجسادنا، وانبهرنا لتحوله إلى مقلب للقمامة، نظرنا إلى بعضنا البعض وبكينا.

سرنا على طريق الموز نبحث عن آثار النهر، مدفوعين بطاقة النجاة، وحين أعيانا التعب، استرحنا تحت شجرة جميز وارفة، ورأينا أسراب الطيور تحلق فوقنا وتغرد في سلام.

اندهشت لنزول أحد الغربان بجوارنا، وجلوسه بجوار "مهيطل" و"المهبولة" و"الكلب" و"الكلبة"، سمعت همس نعيقه ونباحهم، بادلوه الإشارات والأصوات الخافتة كأنهم يتداولون الأسرار.

قاموا الأربعة خلفه، وأشاروا ناحيتي لنرحل من المكان، جريت وراءهم غير عابئة بالسماء التي امتلأت بالرعد.

قبل وصولهم إلى مبتغاهم غرقت الأشجار في سيول لم أرها في حياتي، وشاهدت جزيرة خالية من الحياة تقترب وسط بحور النار التي أظلمت الدنيا بدخانها.

(٦)

سرنا على الجسر الذي تمدد تحت أقدامنا، كأنه يدعونا للهروب من الحياة، وحلقت الطيور فوقنا وأضاءت السماء بريشها المضيء.

عبرنا نحن الخمسة على أخشابه، وفوجئنا بأنفسنا في نهايته وسط جزيرة معزولة، لا يسمع فيها سوى حفيف الأشجار.

ملأ الندى والخضرة أرضيتها، والتقطنا ثمار التفاح من الأرض وأكلناها بطينها، والتهم "الكلب" و"الكلبة" بعض الزهور التي تشبه الليمون بأفواههما المفتوحة.

ظهرت الشمس فوقنا، وشاهدنا دخانًا رهيبًا يرتفع من منازل الحي، كأن بركانًا من النار انفجر وسط البيوت.

تجاهلنا رائحة الدخان التي سدت خياشيمنا، وسرنا بين صفين من الأشجار على طريق ترابي وراء نور يقترب من عيوننا كلما خطونا باتجاهه، وحينما وصلنا إلى نهاية الطريق، شاهدنا القمر يسطع في السماء، ورأينا من جديد شاطئ النهر ينادينا.

نادى أحد الصيادين من بعيد بأسمائنا، فاقتربنا من مركبته، وألقى بلوح خشبي على الشاطئ، وسرنا عليه حذرين حتى التقط أيادينا، اندهشنا لمعرفته بحكاية السيرك الذي نصبوه للفرجة علينا، لكنه لم يرتح لوجود "الكلب" و"الكلبة" اللذين نبحا في حزن، وجلسا في نهاية مركبته راضخين.

نقلنا مرة أخرى إلى الشاطئ، وصعدنا في صمت إلى الجسر، ودون إرادتنا سرنا هاربين إلى المجهول.

تذكرت على غير إرادتي مقتل "الزراب" و"سمبو"، وظهور "الخياش" وسط الظلام، نظرت إلى وجوه أصدقائي، فواسوني دون معرفة التفاصيل.

حكت "المهبولة" بضراوة عن "الزراب" كأنها خليلته، حكت والبكاء يملأ شدقيها عن رائحة وحله، باعتبار زريبته الأثر الباقي من الحي القديم، مؤكدة رفض والده بيع الجواميس والأبقار بعد اختفاء الأرض والزراعات، مقرراً رغم محاضر "سمبو" و"المخبرين" وموظفي البيئة، الاستمرار في إنتاج الألبان واللحوم.

حكت عن والد الزراب "سعد" الذي ورث مهنته عن والده الطيب، واستكمل مهمته في إنتاج الألبان، ورغم قيامه بفرز اللبن وغشه بالبودرة، لكن الجميع ابتهج بالوقوف طوابير كل صباح لشراء اللبن الصابح من زريبته.

وصفت إشارته وصوته وهو يضع آلة الفرز في حجرة ملحقة بالزريبة، ويأخذ الحليب الصافي من "الكلاف" بمساعدة أولاده، ويقومون بنزع الدسم والقشدة من اللبن، ويخلطونه بالمياه المغلية، ويقلبونه مع بودرة بيضاء يقال إنها تحتوي على رائحة اللبن وطعمه.

حكت "المهبولة" وسط صمتنا، عن جلوس "الزراب" كل عصر على الدكة التي تقع على باب الزريبة، يعد جنيهاته ويلفها في أساتك، ويخبئها في خزانة لا يعرف حتى أبناؤه مكانها.

قالت مكلومة بحسرة: "اشترى سيارة كبيرة وعدة منازل وزرائب، واشتهر كأفضل لبان عرفه الحي، ومع ذلك حين قتل عثر أبناؤه على الخزانة، وباعوا كل ما يذكِّرهم برائحة روثه".

نظرت إلى عيوننا وقامت مفزوعة ترشدنا إلى الطريق، نبشت التراب وأزاحت بعض الأحجار، واستخرجت كنزها الذي ادخرتها طول حياتها.

ألقت بالنقود في حجري، وفرغت مخلاتها على الأرض، فالتم الجرذان والصراصير والنمل والثعابين على خبزها الذي فاجأتنا بإخفائه طوال رحلة الخروج.

احتضنت "الكلب"، ولافت "الكلبة" على "مهيطل"، وناموا بجواري في سلام، كان القمر يتوسط السماء، وتمنيت فجأة رؤية "الخياش" لأنعم مثلهم بالدفء.

نمت إلى جوارهم وحيدة، فجاءني في الحلم ملاك على شكل عصفور صغير، حملني وطار بي حتى سماء بعيدة، وجلس وسط الضياء يغرد من حولي.

أدخلني وسط منزله المبني من أوراق الورد، وجلست في براحه أستمتع بتغريده وغنائه المتواصل، التم حولنا اليمام والحمام وغردوا لمالك الملك.

حين لفحنا حر الظهيرة قمنا من نومنا، ونظرنا بحب إلى وجوه بعضنا، رفعت "المهبولة" مخلاتها الفارغة، وحمل "مهيطل" كيسه المملوء بالأوراق، وسار " الكلب" و"الكلبة" أمامهما، وترجلت خلفهم غير عابئة بمصيري.

عربجي

(١)

عيّروني بأمي العرجاء التي خلعت ملابسها وسط الشارع، وشقت بطن "الجزار" ولم تهب الموت، شهدوا جميعًا ضدها، وألقوها بالسجن حتى قابلت ربًا كريمًا.

كلما سمعوني أسب حماري وألسعه بالأمشة، استغفروا الله، وتأسوا لحاله، يعاملونني كمجنون، ولا يدركون مدى عشقي لعيونه، أفك سرجه كل ليلة عن ظهره، وأملس على كفله، وأضحك معه لأخفف تعب النهار.

أجهز علفته وأسقيه، وأطمئن على أقدامه وأنفه، وأتمدد على ظهر عربتي، وأغط في نومي دون أحلام.

أعيش بالطول والعرض، ولا يهمني سوي إسعاده، حينما يرزقني الله بنقلة رتش، أفاصل الزبون لأضمن شراء علفته؛ فأكل الإنسان مقدور عليه، لكن أكل الحمير شيء صعب هذه الأيام.

أصحو من نومي، وألاطفه بسب الدين، فيضحك وينهق، فألسع ظهره بأمشتي ليصمت، فيزمجر ويرفس كي أعلقه في العربة، ونتوكل على مالك الملك.

أغلق حجرتي، وأسرح في الشوارع، أراقب نساءهم وأسمع صراخهم، وأضاحكهم كي يمر يومي في سلام.

بعد موت أمي في السجن، لم يعد أحد يطمئن لظهوري، ومع ذلك حين يغلق باب الرزق في الحي، أسرح في الحواري البعيدة والأحياء الأخرى، باحثًا عن مرزق لحماري.

شخص واحد في هذا الحي لا أرتاح لرؤيته، ينافسني ويحق لي قتله، كوّن عصابة من الصبية وادعوا أنهم زبالون، يجوبون الشوارع كالغجر، ويرفعون الأكياس من الحواري، ويتقاضون الثمن.

اشتروا تكاتك مكشوفة وسيارات نصف نقل، وباعوا الحمير وعربيات الزبالة، وتعامل الجميع معهم وتجاهلوني، ونسوا أنهم بذلك يكتبون شهادة وفاتي، إذن ماذا أفعل بعد اتفاقهم مع سكان الشقق والمقاهي والمطاعم على تسلم زبالتهم كل صباح؟

في الليلة الفائتة جهزت سكيني ونويت على الشر؛ إذ لا يمكن تركه يعبث بزبائني ويسف رزقي، وأنا أقف متفرجًا على خراب بيتي.

في الصباح نظرت إلى عيون حماري واعتذرت عن عدم شرائي علفته، وربطت سرجه على ظهره، وقررت السير باتجاه المزارع قرب النهر.

كل ما شغلني هو إطعامه وملء بطنه، ومع ذلك زمجر ورفس ونهق، فخبطته على رأسه، فصمت واستكمل سيره حزينًا.

حين توقف أمام العلاف، لطشته على كفله بالأمشة، ولولا تجمع الناس حولي لقتلته بسبب إمعانه في إهانتي وتعييري بفقري.

استجاب في النهاية واستكمل سيره، وتوقفت عند شاطئ النهر بجوار كشك "نصار" القهوجي، ودخلت وسط أشجار الموز، وجمعت كومة من الحشائش، وخرجت سعيدًا بتوفير غذائه، لكنه اختفى ولم يعد له أثر.

صرخت وصرخت وجاءني القهوجي ورواده، وعرفوا السبب فواسوني، واندهشوا لاختفاء العربة بالحمار من على الجسر في عز الظهر.

جلست على الأرض أنعي حالي، رفعت التراب فوق رأسي ولطمت خدودي كالنساء، لكن الجميع لم يندهش لحالي؛ لأنهم يعرفون مثلي هوية السارق.

توجهت على غير إرادتي إلى وكالة "زخاري" حرامي الحمير، ودرت كالمجنون وسط مخابئه، ورميت كلبه الأسود بحجر في رأسه، فنبح كالمعزة وجرى بعيدًا.

لم أهتم بسؤال الحرامي عن مقصودي، ودخلت حجرته التي ينام فيها آخر الليل أفتش في أركانها المليئة بالأجولة.

عندما دخل ورائي ووقف بمواجهتي، بكيت وباغتّه بسؤالي: "وديته فين يا زخاري؟". قهقه عن آخره قائلًا: "بتدور على إيه يا عربجي، حمارك مش هنا يابن العرجة، الزبالين ضحكوا عليك ورموه في البحر يا مفتح".

لمحت في عيونه نظرات التشفي، وكظمت غيظي لرؤية ابن أخيه "الأعور" الذي اقترب مختالًا بعصاه وجلبابه، قائلًا بصوته المائع: "اسأل عيسى الغنام مش صاحبك؟ هو اللي عارف الحرامية يابن زليخة".

جلست بجوار "زخاري" أحاول التودد إليه لمعرفة مكان اللصوص، وعندما شد نَفَسًا من السيجارة المحشوّة بالبانجو، نظر ناحيتي كابنه قائلًا: "يابني احنا بنسرق حمير الفلاحين والأكابر مش حمير الجرابيع اللي مش لاقيين ياكلوا، وكمان مبنسرقش من الناحية بتاعتنا، علشان دول مهما كان ناسنا وعندهم كرامة، دور بعيد الله يسهلك، طلبك مش عندنا".

أعطاني السيجارة وشددت نفسها الأخير وقمت مهرولًا أبحث عن حماري الضائع.

(٢)

بحثت في الخرابات والمدافن والجراجات، لم أترك حارةً أو ميدانًا إلا دعبست في أركانه، وفي نهاية اليوم دخل النوم عيوني، فعدت إلى حجرتي حائرًا، ولأول مرة أدخل بين جدرانها وحدي وأنام كالقتيل، محسوراً خائر القوى.

جاءتني أمي في أحلامي كنسر، وحملتني فوق ظهرها لتجوب الحواري، بحثت معي بإخلاص وسط باحة الكنيسة وعلى أسطح الجوامع.

وشاهدت نفسي أطير بجوارها، واستغرب أهل الحي طيراننا في السماء، وحاول الأطفال إطلاق الزلط من نبالهم علينا، فابتعدنا عنهم، وأطلق علينا "المخبرون" ومأمور القسم النار، لكننا تفادينا طلقاتهم بخفة النسور، ونزلنا من الفضاء على شاطئ النهر.

خلعتْ ملابسها وغسلت عرقي وقشفي بيديها، داعبت نهدها ناسياً روحي فضحكت منتشية، فتحسست مؤخرتها الطرية بنشوة، وذكرتني بأيام صباي في الحجرة التي جمعتنا سنوات طويلة.

استعدت ذاكرتي، وعاقرتها عارية، وهي تتأوه في سعادة لم أشعر بمثلها بين أحضان النساء اللائي فجرتهن فحولتي.

استحممنا بمياه النهر سعداء بالسلام الذي ملأ أرواحنا، وعدنا إلى طيراننا فوق السماء، وأشارت إلى حماري وعربتي وسط حقول الموز، فوقعت من طيراني عليها.

احتضنت الحمار الذي كان نائمًا بسرجه على كوم السباخ، وأمسكت الأمشة لأعاقبه، فقذفتني "العرجة" بسهام من نار متقدة، فصحوت من نومي مفزوعًا قبل وصول السهم إلى قلبي، جريت حافياً إلى المكان الذي أشارت إليه بجوار مقهى نصار.

حاول "سعدون" و"عيسى الغنام" و"رمضان الكلاف" و"محمد الزبال" إيقافي، وسؤالي عن وجهتي، لكني لم أرد، وذهبت مسرعًا إلى المكان الذي يختفي فيه وحيدي.

تسحب ظلام الليل ليملأ أركان الدنيا، ومع ذلك دخلت أحراش الموز غير عابئ بالعفاريت، ووجدته غارقًا في نومه، أخذته في حضني.

نهق وزمجر وادعى غبائي؛ لأنه ناداني حين خرجت من حقول الموز، ولم أسمع نهيقه.

نظر إلى عيني، وأفهمني أن الجوع كافر، ولم يتمكن يومها من الإمساك بنفسه، فنزل وسط الموز دون أن يلمحه أحد، وسار على المدق الصغير حتى اختفى عن عيون المارة، أكل وشبع من خير الأرض، ونام سعيدًا بالسماء والنسمة التي ملأت روحه بالامتنان.

وخرجنا من الممر الضيق الذي دخل منه، وصعدنا إلى الجسر مبتهجين، وعدت إلى الحي سعيدًا برجوعه، وقابلني "رمضان الكلاف"، واشتكى حاله المزري بعد بيع الزريبة للحداد وطرده من العمل بعد مقتل "الزراب".

ضحكت كثيراً، وقلت له: يكفيني تحمل مسئولية حمار واحد، أصر على مصاحبتي، وتنظيف مربط حماري مقابل إطعامه والنوم بحجرتي حال عدم وجود مكان يؤويه.

اشتريت بجنيهين فولًا وبصلًا وعيشًا من منزل "الفوالة"، وذهبنا إلى الحجرة، أكلنا حتى شبعنا، وتركته ونمت على عربتي، عند ظهور الشمس، وجدته ينظف بفأسه مربط حماري، فسببت الدين ليومه الأسود.

طردته دون رحمة، خوفًا من تعويد حماري على تتريب مربطه، وإجباري على رفع روثه كل يوم.

بكي الرجل قائلًا: "مش محتاج منك حاجة يا عبيط، سبني أنظف المربط، وأنقل السباخ للخرابة"، لم أبالِ بعويله واحتياجه بأي طريقة للعيش في ماضيه، بصقت في وجهه، وسببت الدين لـ"الزراب" وأبنائه والأيام السوداء التي جعلت "الكلاف" يحتاج لـ"العربجى".

لم أتأسّ لحاله، وتركته يبحث عن رزقه بعيدًا، وسرت وسط الحواري سعيدًا بحالي.

بعد يومين شاهدته يمشي بظهره المحني كالقرد، يجمع الأكياس والكراتين ليبيعها لصاحب المخزن ويِقتات عيشه.

صبحت عليه وتوقفت أمامه، فرفع ظهره بصعوبة، وارتمى أمام الطابونة يصرخ من الألم والمغص الذي أكل كليته.

خرج "سعدون" مسرعًا، وحمله مع عماله، ووضعوه على عربتي، ليغيثوه عند "ناجي المصراني"، أعطاه الحلاق حقنة سكنت ألمه، وهمس "سعدون" في أذنه ليمر عليه كل يوم ليعطيه خمسة أرغفة وكيس فول من عند "الفوال".

تركتهم لاعنًا الدنيا، ورفست حماري بقدمي لنبتعد عن جمعهم، وذهبت لحجرتي أرتاح من تعب النهار.

في الليل والناس نيام نبحت الكلاب مفزوعة، جريت إلى مصدر الصوت، فسمعت الناس تحكي عن معروف الكلاب التي شدت "الكلاف" من ملابسه بعد موته في الخرابة حتى باب الطابونة، وعندما مر "سعدون" كعادته قبل شروق الشمس ووجد جثته الدامية، ارتمى عليه وبكى كالنساء، وأفزع النائمين والحيوانات والطيور بصراخه.

شاهدت "صاحب الطابونة" يجلس بجواره يشكو للسماء حاله، صرخ في المتجمعين ليبتعدوا عن أقدامه التي مزعتها أسنان الكلاب.

حينما اقتربت من عين "الكلاف"، ورأيتها مفتوحة عن آخرها وتنظر إلينا مبتئسة بكيت على حالي وعددت كالنساء، لكزني "الغنام" بخرزانته قائلًا: "متزعلش أوي يابن العرجة، دي الجنازة حارة والميت كلب".

(٣)

أثناء توجهي ناحية السوق نادتني "انشراح" من البلكونة لرفع أكياس زبالتها، ربطت حماري في بابها الحديدي، وعلقت مخلاة العلف في رقبته، ونصحته بألَّا يهرب أو يستجيب لأي كلب في الطريق.

شددت عليه كي ينهق حال شكه في أي عابر سبيل، ووعدته بشراء ذرة مدشوشة حال رزقي اليوم بأية جنيهات.

صعدت سلالم المنزل، ووجدت المرأة تنتظر حضوري، سحبتني من يدي لأدخل مطبخها، أغلقت باب الشقة ورائي وداهمتني، افترستني ككلبة، ولم تعطني الفرصة لخلع ملابسي ومزقت جلدي بأظافرها الملونة.

وحين اكتشفت كرمشة جلدها، وتحسست فرجها المرخي زأرت، وجن جنوني وركبتها كأمي، ورغم استجابتها وخضوعها لتأوهاتي، لكنني هرولت من فوقها حين سمعت نهيق حماري، ونزلت إلى الشارع لألحق باللصوص الذين أرسلهم "زخاري" و"محمد الزبال".

وحين وجدته يضحك بعيونه، ويضرِب الأرض بقدميه، لعنت اليوم الأسود الذي رزقني بحمار مثله، ثنَى أذنيه ناحيتي ساخراً من بنطالي المفتوح، فلطعته بالأمشة على وجهه، وسببت الدين لأمه، وحللت قيده من الباب، وصرخت في وجهه كي نبتعد عن المكان المنجوس.

نادت "انشراح" من البلكونة باسمي، ودعتني للمرور عليها في المساء، نظرت إلى السماء مكتشفًا فجور عينيها، وبادلتها نظرة الأسد، فرضخت لندائي قائلة: "هستناك يابن العرجة.. متتأخرش".

سرت متأسياَ من سخرية الحمار وخديعته، وشاهدت ابن "الجزار" يمسك سكينه ويشفِّي لحمته، وكدت أنزل وآكل زمارة رقبته، لكن نهيق حماري أعادني إلى الشارع المملوء بالبشر.

لعنت تاريخه الأسود، ولطعته بغلّ على كفله بالأمشة، وعبرت الشارع من أمام المحل دون النظر إلى عين ابن "الجزار" الواطي الذي تسبب في موت أمي.

تمنيت ظهوره وحده خارج الحيِ كي أبرك عليه وأقطع لحمه بأسناني، لكن صراخ الناس حولي جعلني أستكمل سيري مملوءاً بالغيظ، حسدته لامتلاء محله بالزبائن وصرخت ليسمعني: "امشي يا حمار يابن الشرموط بدل ما أنزل أسيح دمك".

استوقفني "الزبال" وأعطاني سندوتش فول، ولاطفني قائلًا: "الأرزاق بالله متزعلش مني يابن زليخة".

شخرت وزجرته بيدي، فضحك عن آخره مرددًا: "يا عبيط إلا الزبالة، دي الناس كلها لو اشتغلت معانا في المهنة مش هتلاحق"، واستكمل خائفًا من عيونى: "وبعدين يا سيدي تعالى اشتغل أنت وحمارك معانا، ويوميتك خمسين جنيه، موافق يا جحش؟!".

وحين لمحت الصدق في نبرة صوته صرخت: "بس هاخد فلوسي مقدم يا حرامي"، قهقه عن آخره ولاطفني، وأعطاني ورقة بخمسين جنيهًا، ووعدته بالعمل منذ الصباح.

استكملت سيري فرحًا بباب رزقي المفتوح، واستوقفتني المعلمة "شريفة" زوجة "نصار القهوجي"، وطلبت بصوتها الأجش رفع كومة الرتش من أمام مقهاها ونقلها إلى الخرابة.

علمت من صبيانها أنها تجدد النصبة بعد طردها لـ"نصار" وزوجته الجديدة من الحي.

ركنت بحماري أمام مقهاها، وطلبت شايًا وشيشة على حسابها، وحمل عمالها العربة، أعطتني خمسين جنيهًا، فصعدت على عَرِيش عربتي مبتهجًا وسرت حتى الجسر ممتنًّا للرزاق.

غنيت للعاطي والمنان وأبو مسلم، وتوقف حماري بالقرب من النهر، حللته من العريش وربطته في العربة، وانحنيت تحت جانبها الأيمن وألقيت بحمولتها على الأرض.

زمجر حماري من رائحة الغبار، فأبلغته بذهابنا إلى النهر لنغتسل، وعدت متجهًا إلى الشط سعيدًا باليوم المبروك الذي يحمل في نسماته كل الرضا.

حينما اقتربت من الشط حللت سرجه، وخلعت ملابسي وألقيتها على الأرض، وسحبته في المياه حتى غطت صدورنا، دعكته بالليفة وغسلت بطنه ورقبته وأقدامه، وطهرت نفسي وعدنا سعداء برزقنا ونظافتنا.

مررت على العلاف لشراء الذرة المدشوشة التي وعدته بها، واقتحمت محل الفرارجي لاختيار الفرخة المشوية والسلطات، وتوقفت أمام دكان "ناجي المصراني"، وأخفيت ربع الكينا في ملابسي للاحتفال بباب السعد المفتوح علينا في السماء.

ذهبت للحجرة، وأدخلته مربطه وقيدته بحذر، وأغلقت الباب علينا، وضعت العليقة أمامه، وأكلت الفرخة مستمتعًا بطعم جلدها المحروق، وجلست سعيدًا أشرب الكينا غير عابئ بحياتي.

لا يزعجني في خلوتي سوي جاري وكلبه وقردته اللذين يدخلان حجرتي ليلًا، ويعبثان في الأركان باحثين عن الطعام.

كلَّمت الحاوي كثيراً كي يربطهما قبل نومه، ولكنه كعادته يرد: "اربطهم أنت لو تعرف يالمض يابن القحبة".

نظرت إلى حماري وسرجه المحلول، فاطمأننت ليقظته، وحذرته من "زينة" بنت "عيسى الغنام" التي ترافق "الأعور" قريب "زخاري"، لرؤيتهما منذ ساعتين يحومان حولنا أثناء استحمامنا في النهر، ولولا علاقتي الطيبة بوالدها لأغويتها وعاقرتها في الخرابة.

قمت مرة أخرى لأتأكد من إغلاق الحجرة بالترباس، ونمت كالقتيل، ورأيت حماري قبل غفوتي يتمدد على الأرض بجواري، فاطمأننت إلى هدوء الحال.

قبل الفجر نهق كالمجنون، فصحوت مفزوعًا، وأمسكت الأمشة وضربته على فمه حتى صمت كالكلب، انتظر لحظة ثم حفر بأقدامه أرضية الحجرة، وألقي بفشله على رأسي ومنامتي.

قطع قيده، ورفس الباب بأقدامه، فانفتح أمامي، لأشاهد جثة الحاوي ممزقة والدم يملأ وجهه، صرخت في السماء كي تغيثني، التم الجيران، وسمعنا صوته وهو يعترف على قردته التي مزقت جسده بمشاركة الكلب، وأكلا ذراعه لأنهما لم يذوقا طعم الزاد من ثلاثة أيام.

وقف الكلب والقرد في مدخل المنزل متأهبين لقتلي، ولولا حضور "المخبرين" الذين علموا بالخبر كعادتهم، وإطلاقهم الرصاص في رأس القرد والكلب، لأكلاني ومصمصا عظامي.

نبح الكلب باكيًا وصرخت القردة كالعنزة، ووضع كبير المخبرين طبنجته في جيبه، قائلًا في مواجهتنا: "يا كلاب يا ولاد الكلاب ماسمعش صوتكم تاني".

(٤)

حينما قابلني في الصباح، وحلف ميت يمين كي أزوره للاحتفال بعودة حماري، لم أتردد؛ لأني أعشق النور الذي يغمر وجوه زوجاته.

يعاملني كأخ، ولا أتردد في مساعدته على سرقة حقول الفلاحين البعيدة أو حرق أجرانهم، أفعل كل ذلك من أجل الأخوة، فـ"عيسى الغنام" نعم الأخ، ولم يتطاول أو يتندر طوال حياتي على أصلي أو فقري، كل ما يربطنا هو الحب والصداقة.

حينما ماتت أمي واساني، وحضر مع إخوته العربان، وجلس وسط الشارع غير عابئ بسواطير أبناء "الجزار"، حضنني كأخ قائلًا: "البقية في حياتك يابن العرجة".

من يومها توطدت علاقتنا، وحرمت نساءه وبناته على نفسي، ورغم أن زوجته الأولى تضاحكني، وتمسك قضيبي معظم الأحيان لتخفيف أحزاني، لكني لم أنظر إليها أبدًا كفاجرة.

تعيرني دائمًا بأنني لست رجلًا، وتشخر وتسخر من برودي، وتنعتني بعديم النخوة، ومع ذلك لم أتطاول عليها أبدًا؛ لعلاقتي الطيبة بزوجها زينة الرجال.

يرتبط "الغنام" بعائلته التي تركها في الصحراء، يزورونه في السر والعلن، ويخفي المطاريد في خيمته.

يصاحب "المخبرين"، ويسوق لهم السلاح والمخدرات، ولا يخاف على نسائه وبناته من كلاب الشوارع.

يقسم العمل بين أولاده دون ظلم، ويكتفي بالنوم طوال النهار، والسهر حتى الفجر ليحميهم، يعاقر نساءه الثلاث بعد عودتهن من السروحات مبتهجات مرزوقات.

في الفترة الأخيرة اشترى ثلاث عربات بأحصنتها، وسلم كل امرأة بأولادها واحدة لينقبوا في الزبالة، ويجمعوا الزجاجات الفارغة والكراتين، ويتعامل بنفسه مع أصحاب المخازن الذين يعيدون تصنيع كراكيبه، ليكسب من وراء نسائه وأولادهن الذهب.

لا يعرف أحد أين يخبئ أمواله، ترك لـ"سليمة" امرأته الأولى المعيز والأغنام لتسرح بها وتحلبها آخر النهار وتصنع من خيرها الجبن والقشدة، ولا يهتم بالإشاعات التي تتردد وسط الزبالين والعربجية بأن بناته ينمن مع الكلاب التي تملأ الخرابات، ويكتفي آخر اليوم بمعاقرة إحدى نسائه دون الاعتبار لكلام الأوباش.

يعلم الجميع أن "المخبرين" سلموا أولاده خمس بنادق آلية، لحماية مدخل الحي ومطاردة اللصوص الغرباء، ويعرف بخبراته كل كبيرة وصغيرة، يجالس العربان والأغراب ويحل المشاكل العويصة، ولا يمكن لأحد أن يعارض حكمه.

حين ذهبت إليه في الليل لنحتفل بعودة حماري، أحضرت سليمة بنفسها أنجر الفتة ووضعته أمامي، وتندرت على حماري الذي هرب من وجهي العكر.

مالت بصدرها المفتوح على وجهي، فغرقت في رائحة عرقها ورأيت نهدها النضر، نظرت بعيونها الواسعة في قلبي ودهوستني، وهمست بفجر: "هستناك بكرة على الشط يابن العرجة".

احتسيت عشائي كالجدي وقمت على حين غرة غارقًا في الدهون والأرز، ونادى "الغنام" عليها لتصب الماء على يدي وأزيل الدهن والزفر، لم أتمكن من الجلوس بصحبة "عيسى"، واستأذنت مغادراً، خجلًا من عيونه.

علقت حماري في العربة واحتضنته وأنا مغمض العينين، واندهش الرجل من هرولتي، وحاول الإمساك بملابسي لمزاملته بالسهرة، وأخرج من جيبه قطعة حشيش قائلًا: "دي هتبسطك يا جحش.. خليك متخافش".

حين رأى إصراري، قطّعها بالنصف قائلًا: "دي حقك يا نمس اشربها وأنت تعرف غلاوتك عندي".

سرت بالشارع تائهًا حزينًا، ولم أشعر بالذنب طيلة حياتي مثل هذه الليلة، أوصلني حماري إلى الحجرة، ونهق كي أصحو من غفوتي، صرخت في وجهه، ونسيت وضع العلفة في رقبته أو حل سرجه، وتمددت على العربة محاولًا النوم، لكن نهد "سليمة" وصوتها الذي دعاني للشوق لم يفارقا عيني.

(٥)

مع ظهور النور وانتشار الذباب على وجهي، ونهيق حماري الذي صرخ مخنوقًا في سرجته، صحوت مفزوعًا من أحلامي وسرت بالشوارع الخالية كميت.

عبرنا الحواري، وطلعنا على الجسر، وجلست على مقهي "نصار" أعاتب نفسي.

طلبت من القهوجي إحضار شيشة ومزاملتي في الحجرين، وحين لفت رأسه قام مسرعًا إلى البوفيه وعمل فنجان قهوة مضبوطة ووضعه أمامي قائلًا: "اشرب بالهنا والشفا يابن زليخة".

حكى عن زوجته وأولاده الذين طردوه من شقته، واستولوا على مقهاه بعد زواجه من حورية استجارت بشهامته، وحماها من كلاب الشوارع، وآواها في منزله على سنة الله ورسوله.

رفض تطليقها وتهديد زوجته الأولى، وأقام عشته على الجسر ليعيش الباقي من عمره بين أحضان محبوبته، لكنها خانته مع "الزبال" وهربت في ليلة ممطرة إلى حي بعيد.

وحين بكي معددًا حاله، لعب الحجران برأسي وانفلتت جوارحي، وجاءتني أمي مهرولة تصرخ وتطلب مني النجاة، رأيتها عارية بأحضان رجال الحي العواهر الذين امتطوها مقابل إطعامنا.

لم أبالِ بصراخها، وقمت من المقهى دون استئذان القهوجي، واستكملت سيري حتى مكان تجمع أغنام "سليمة" زوجة "عيسى الغنام" بجوار النهر، وعندما شاهدتها تهش أغنامها انقبض قلبي وأوقفت الحمار.

تركتْ أغنامها واقتربت من هالتي، وقالت بجرأة لم أحسها في جنس النساء: "قرب يا بن العرجة، متخافش، النطع صاحبك نايم في حضن منصورة، قرب يا خرج ميهمكش".

جرتني كالكلب، ودخلنا وسط الأحراش، وقفت أمامي كعروس البحر وعرت صدرها، فظهر نهداها خلف قميص نومها الأحمر كقمرين، أمسكت عضوي دون مقدمات، فأحرقتني، ونسيت عيسى وصحبته، وبركت عليها وهي تصرخ من النشوة قائلة: "بالراحة يابن الفاجرة بالراحة متخافش محدش هيشوفك".

التصقتُ بجسدها، ووددت لو أموت على هذا الوضع، لكن صوت حماري أفزعني، فارتديت ملابسي سريعًا، وخرجت من الهيش لأفاجأ بـ"الزبال" يحوم حول عربتي.

اقتربت من عينيه وصرخت في وجهه، ففاجأني بالخبر الذي لم أكن أتوقعه قائلًا: "عيسى مات!". نظر إلى وجهها مستكملًا: "عيالك قالولي بلغ سليمة بالخبر".

لم تهتز المرأة، ونظرت إلى ملابسه باحتقار قائلة: "أنا معنديش عيال يا زبال، أنا عندي كلاب بتعض"، لطعت الخروف على قرونه بعصاها الغليظة وسألته: "مات إمتى يا معفن؟!".

فرد ملتهمًا بعيونه نضارة صدرها البارز: "من ساعتين"، تجاهلتنا وهشت أغنامها، ونادت على نعاجها وجديانها، كي تعود إلى عشة "الغنام" المركونة بمدخل الحي.

حينما اقتربتْ من جسدي وأنا أجلس على العربة صامتًا، نظرت برعب إلى عيني قائلة: "دورك خلص يابن العرجة، إياك توريني وشك تاني، يا خاين العيش والملح!".

(٦)

لازمني الصمت والخوف حين اقتحمت نبرات صوتها قلبي واتهمتني بالخيانة.

يتجاهلون رؤية أنفسهم، ويتهمون غيرهم بما فيهم، تناست أنها هي التي أغوتني وخلبت أعماقي، لتربطني كالحمار في أذيالها، وحين التهمتني وذاقت حلاوتي، زجرتني، وطالبتني بعدم رؤيتها مرة ثانية.

شددت لجام الحمار، وعدت إلى الجسر مرة أخرى، توقفت أمام مقهى نصار، وجلست حزينًا على دكته، جاءني الرجل بالشيشة مهرولًا، قضمت بأسناني حجرين من الحشيش ووضعتهما تحت المعسل.

أحضر مصفاة النار المشتعلة، وضحك في وجهي قائلًا: "شد يا معلم نهارنا فل".

سلَّمته لي الشيشة، فشد أنفاسها عن آخرها، وخرج الدخان من عينه وأنفه، جلس أمامي على الأرض، قائلًا بلهجة غريبة: "ملعون في كل كتاب يا جنس النسا"، وشد نفسًا آخر قائلا: "ده أنا سيبت بيتي وعيالي علشان خاطرها، وبعدين تهرب قرفانة من عيشتي.. اخص على ده زمن!!".

نظرت إلى عينه الباكية، وخففت من وجيعته قائلًا: "متزعلش نفسك يا نصار.. النسوان على قفا من يشيل".

تمدد على الأرض وبكى بحرقة لم أفهمها، وصرخ كالوحش: "آه".

قام مفزوعًا وجرى إلى النصبة، وأغرق نفسه بجركن الجاز، ووضع رأسه في نار الباجور، واشتعلت النار بملابسه ووجهه، وجرى أمامي كعفريت، وسكب باقي الجركن على الخص لتأكله النار.

صرخت: "جاي الحقوني"، لم يعبأ أحد بصوتي، فابتعدت عن الجحيم الذي أطلقه القهوجي، وشاهدت حماري ينتفض مرعوبًا، وقبل وصولي إلى عربتي، سمعت انفجار الأنبوبة يأكل ما تبقى من الخص.

في اللحظة نفسها سمعت أصوات سارينة البوكس وسيارة المطافي تعوي على الجسر، اقتربوا مني وضربوني بأحذيتهم على مؤخرتي وسبوني، وضعوا القيود في يدي وسحبوني على التخشيبة.

في الليل حكيت للضابط ما حدث مع "سليمة" و"الغنام" و"الزبال"، لم يصدق حكايتي، واتهمني بقتل "القهوجي".

لم أكن مشغولًا بأي شيء سوى بمصير حماري الذي تركته وحيدًا على الجسر، فمن يطعمه ويحميه بالنهر؟ سحلوني كي أعترف، وحين لم أجد مهربًا من أياديهم وأرجلهم، وقَّعت على الأوراق التي تفيد قيامي بحرق الخص وسرقة صديقي "نصار".

تذكرت عيونه الباكية، ولعنت جنس النساء ومكرهن الذي أحرق قلبنا ودمر حياتنا، فلولا نهدا "سليمة" وعيونها التي جرتني إلى الأحراش، ما ذهبت اليوم إلى غرزة المحروق.

نعمة

(١)

أعيش حياتي كأميرة بمنزلي الجديد الملاصق للشط، لا همّ أحمله ولا مسئولية على عاتقي، آويت أمي بعد إصابتها بالشلل في شقتها المستقلة بالدور الرابع، لتفتح شباكها كل يوم على البراح، وتستمتع بخرير المياه البعيدة وتحلم بما تشاء.

تركت الدور الأرضي كمخزن لملابسي وذكرياتي القديمة، وخصصت الشقة الواسعة بالدور الثاني لاستقبال زبائني.

طليت حوائطها بالأحمر الفاتح، وركنت كراسي الفوتيه على جدرانها، وغطيت الصالة الواسعة بالسجاجيد الملونة والمليئة بالزهور والفواكه، وفرشت عليها الشلت، ليشعر زبائني بأنهم داخل قصر السلطانة.

أعاشر المريدين في غرفتها المركونة بجوار الحمام المليء بالمرايات والأنوار الملونة، وأتطهر من روائح روثهم كل ليلة بحوضه الواسع، يفوح مطبخها المركون بجوار مدخل الشقة بروائح المقلي والمحشي والمحمر والمشمر على الداخلين والخارجين من جنتي.

في الدور الثالث تقبع شقتي التي أعيش فيها وحدي، أختفي بين جدرانها يوم الإجازة لأتفرج على التلفاز، وأسمع الموسيقى، وأستمتع بهواء النهر، ومراكب الصيادين وغنائهم.

منذ تربعي على عرش النساء في الحي، لم يدخل شقتي جنس الرجال، حتى لا ينجس سجادها وأثاثها رائحةُ عرقهم.

تملأ رزم النقود خزانتي، وتعيش أمي كالسلطانة بمرافقة "زوجة سمبو" التي تنام تحت قدميها بعد حرق وجهها بماء النار ليلة حرق الضريح والتي أدت مشاجرتهما مع القوادة إلى ارتباط مصيرهما.

نسيتا الماضي وتجاهلتا الشماتة، وقررتا العيش وحيدتين بعيدتين عن أسى الحي وحكايته، أثناء العركة شلتْ قدم أمي وحَرقتْ نهدها، فقررت الخروج لمواجهة بُغض الجميع، والانتصار على ضعفهم بفرجي ونضارتي.

رميت حمولي على الله، وعاشرتهم جميعًا، وجنيت ثروة كبيرة، اشتريت بجزء منها هذا المنزل وأسسته لأستقبل من أشاء من رجال الحي، أو الأغراب.

اشتريت ثلاثة كلاب من سوق المدينة، وربطتها في مدخل البيت الواسع، وعينت "الأعور" كبير اللصوص حارسًا على منزلي، ورافق الكلب "زينة" بنت "الغنام" التي تعمل وصيفة لزبائني في ليالي المتعة التي تملأ حياتي.

أسافر خلال شهور الصيف برفقة أمي و"زوجة سمبو" و"زينة" إلى بلاد البحور؛ لنستمتع بالدفء والشمس، ونغتسل ونتطهر كملائكة.

لا أعاشر أي رجل في الإجازات؛ لأني أؤمن بأن الأمل الوحيد لاستمراري في هذه المهنة هو تجديد نشاطي وحيويتي، بالابتعاد عن جنس الرجال وروائحتهم.

أغلق منزلي خلال هذه الفترة، وأترك الأعور مع كلابي الثلاثة أمام المنزل مربوطين في الجنازير، ليحموا أثاثي وملابسي وسجادي من غدر الكلاب.

(٢)

قامت "زينة" بمساعدة البنات بتنظيف المنزل بعد عودتنا من شاطئ الإجازات، ونمت لأول مرة مهدودة من التعب في الدور الثاني بحجرة المريدين.

وجاءني في الحلم يعيِّرني على فرجي المفتوح للكلاب، زجرته في عينه، فلطعني على وجهي بمغرفة الفول التي كان يمسكها في يديه قائلًا: "مكنش العشم يا نعمة".

جريت من أمامه أصرخ وحيدة، وشاهدت "ناجي المصراني" و"سعدون" و"محمد الزبال" وأبناء "الجزار" وزوجات "عيسى الغنام" و"القماش" يجرون ورائي ويمسكون بأياديهم توب قماش أبيض.

اشتروه من دكان "القماش" لتكفيني حية، جريت بأقصى سرعتي في الشوارع، ودخلت عمارة كبيرة لم أدخلها في حياتي، مملوءة بالطرقات والشقق المغلقة.

استقبلني بوابها ضاحكًا، وفتح باب حجرة مخفية بين السلالم ومحاطة بحديد أسود، أدخلني فيها، وضغط على أحد الأزرار فصعدنا إلى أدوار العمارة العالية.

نظر إلى نهدي العاري بعيون الثعالب وخلع ملابسه بتلقائية، وعاقرني بقسوة غير مبالٍ بصراخي ورعبي.

فتح باب الحجرة الحديدية، ونزلت وسط الطرقات مفزوعة من لون عيونه المغلولة، ودخلت الشقق أبحث عن شيء لا أعرفه.

خرج الكلاب من الحجرات المغلقة، وسألوني عن طلبي، رأيت الشرر يتطاير من عيونهم، فجريت بين الأدوار كخطية، ونزلت السلالم التي لا تنتهي، وجلست بين أحد الأدوار أرتاح من التعب.

تحاملت على نفسي، وقمت بصعوبة، وخبطت على باب إحدى الشقق، لعل أحدًا من سكانها يغيثني، نظرت برعب تجاه الحجرة الحديدية المملوءة بالبشر والكلاب والقطط، الذين نظروا ناحيتي أثناء صعودهم وهبوطهم كالعفاريت وقهقهوا على عقلي المسروق.

اختفيت عن عيونهم داخل شقة منزوعة الأبواب مهجورة، وسرت بداخل طرقاتها الطويلة حتى دخلت عمارة أخرى لا توجد فيها إلا حجرة واحدة على سطوحها.

خبطت على بابها بقسوة ورعب، وفتح صاحبها الباب، ونظر إلى عيني مشفقًا، واحتضنني، وخفف عويلي وتعديدي، وتفاجأت بردائه الأبيض ووجهه الحنون يلفني كأوراق الورد داخل روحه.

صرخ في السماء، فنزل المطر العارم ليغسلني، عراني وسط السماء ليطهرني من رائحة الكلاب والمواشي، وغطاني بملاية قطنية، وأخذني إلى سريره ليدفئ عظامي اللينة.

نظرت إلى عيونه معتذرة عن جرائمي في حقه، فغفر كل شيء في صمت، واحتضنني مرة أخرى، وتمتم والدموع تغرق وجهه: "سامحيني يا بنتي.. سامحيني يا نعمة".

حينما صحوت من نومي، لم أحكِ لأحد عن مقابلته في الحلم، كل ما شغلني هو معرفة مكانه.

(٣)

عرفت أن أمي صعدت إلى شقتها مع "زوجة سمبو"، وكعادتهما أغلقتا الشقة عليهما كالأموات، وداعبتني "زينة" بأسماء الرجال الذين اتفق معهم الأعور على زيارتي في الليل، وأسهبت في اشتياقهم إلى سهراتي والنظر إلى عيوني الساحرة.

ولأول مرة أشعر بالخوف من صوتها، فسألتها على غير إرادتي عن علاقتها بـ"الأعور"، ارتابت وغضبت، واعترفت بأنها تزوجته على سنة الله ورسوله، وتعاقره بالمخزن كلما تحين الفرصة تحت حماية الكلاب الثلاثة.

شكرتني على إيوائها بمنزلي بعد هروبها من إخوتها الذين رغبوا في قتلها، ورغم نبرة صوتها الصادقة، لكني شعرت بأن هناك شيئًا في الأفق تدبره بدعم "الأعور".

عرفت من "الزبال" في الليلة نفسها أنها استأجرت شقة بالحي، وتنام فيها مع أصدقاء "الأعور" خلال فترة الصباح، وأصبح لها مريدون من أبناء الليل والأغراب الذين استوطنوا بالحي.

حكى عن أبناء "ناجي المصراني" الذين عادوا من البلاد البعيدة، وينامون بشقتها في حراسة "الأعور" الذي اشترى طبنجة ليحمي أموالهم التي جمعوها في الغربة.

أثناء نومي بحضن "الزبال" حكى عن أولاد "الجزار" و"الزراب" الذين اتفقوا مع "الأعور" لتفتح "زينة" شقتها في الليل ليعاقروا البنات الهاربات من الأحياء الأخرى، وآوتهن "سليمة" أم "زينة" في خيمتها، ضحكت قائلة لنفسي: "الآن أصبح لوصيفتي زبائن تزيد على زبائني".

لم تشغلني وشايته بـ"زينة"، ولم أمتعه كعادتي؛ لأن صورة والدي الذي جاءني بالحلم لم تفارق عيني، وحينما سألته عن مكان "الخياش"، نظر إلى عيني مرعوبًا ونزل من السرير، ارتدى ملابسه صامتًا، وغادر مدهوشًا من عودة الماضي على سرير الداعرة.

وضع نقوده على الترابيزة، ولبس جزمته اللامعة وفر هاربًا، نظرت من البلكونة وشاهدت الظلام يعشش في الأركان ويخفي مياه النهر عن عيني، دققت النظر في الكون، ولم أسمع إلا أصوات الصراصير والكلاب التي تعوي بعيدًا.

لمحت "الزبال" يقف أمام الباب مع "الأعور" برفقة "زينة"، وقبل عودتي إلى حجرتي وجدتهم يدخلون بمرافقة كلابي التي ربيتها، كتفوا قدمي وسلبوا من خزانتي الذهب والنقود.

وسمعت أقدامهم على السلالم تصعد إلى شقة أمي، ورغم أني لم أسمع صراخهم، لكني توقعت سلبهم لثروتها التي كونتها عبر الزمن من عرق فرجها، وكفاحها بين أحضانهم.

ظللت بقيودي مكتومة الأنفاس، بسبب الكمامة التي وضعوها على فمي، حتى انتصف الليل، وشعرت بالفرج حين سمعت أقدام أحد الزبائن، وتفاجأت بدخول صاحب مطعم الكشري الذي جرى ناحيتي وفك وثاقي، وسألني عن "الأعور" والكلاب و"زينة".

طلبت كوبًا من الماء، فأعطاني زجاجة ممتلئة، شربت شربة واحدة، وقمت أجري على الدور الرابع وهو يجري ورائي، ودخلت الشقة المفتوحة، فوجدت أمي و"زوجة سمبو" غارقتين في دمائهما.

صرخت بأعلى صوتي في السماء لتنجيني، ولم يكن هناك إلا الصمت وسكون الليل، حتى صاحب المطعم اختفى من جواري.

(٤)

أخذتني أقدامي إلى الحي، وسمعت الجامع ينادي على المؤمنين ليصحوا من نومهم، فجلست وحيدة وسط حارة الطابونة.

حين اقترب "سعدون" من وجهي وسألني بتلقائية عن حالي، لم أرد، وانفتحت بحورٌ من الدموع وسالت على خدي.

فتح باب الطابونة، وناداني لأدخل وراءه، شد كرسي بلاستيك أبيض بجوار كرسيه، ومسح الدقيق من على قعدته، وبسمل في وجهي عدة مرات، وتركني أتحدث باكية، وشاهدت نفسي أحكي حكايتي منذ حريق الضريح حتى مقتل أمي.

لم ينفعل الرجل، وظل صامتاً لدقيقة، ثم قام بهدوء وسحبني وراءه تاركًا باب الطابونة مفتوحا، أدخلني بمنزله القابع على أول الحارة، وتركني في حجرة مملوءة بالزبالة قائلًا: "نامي متخفيش لحد ماجي بالليل".

طبطب على ظهري، وملَّس على وجهي وشعري، كأنه يرقيني، وغطَّاني بملاية قديمة وتركني مذهولة.

قبل انتهاء النهار، دخل مع "الفوال" و"ضاحي" وأمه و"ناجي المصراني" و"القماش"، وأيقظوني من النوم، وسحبوني في صمت إلى الشارع.

وضعوني بجوار "الفوالة" في توكتوك صغير، وركبوا عدة تكاتك وساروا أمامنا صامتين حتى توقفوا أمام منزلي على الشاطئ، نزلوا مكلومين، وسرت وراءهم دون اتفاق، كأنهم شركائي في الحياة.

صعدوا برفقتي السلالم، وغسّلوا أمي و"زوجة سمبو" وكفنوهما.

وضعوا أمي في أحد التكاتك، وأركبوني إلى جوارها، وحملوا "زوجة سمبو" ووضعوها في توكتوك آخر بجوار "الفوالة"، وأغلقوا المنزل بالمفاتيح، وساروا أمامي حتى دخلنا بين المدافن، وضعوا جثتيهما في مدافن الصدقة، وقرءوا ما تيسر من الآيات، وعادوا إلى الحي.

تركوني داخل منزل "الفوالة"، وأدخلتني المرأة حجرة واسعة، وخرجتُ حائرة إلى براح منزلها.

رحت في دوامة كبيرة رغم يقظتي، وشاهدت وجه أبي بملابسه البيضاء ينادي عليّ لأعود إليه في حجرته الوحيدة فوق أسطح العمارات، صرخت دون إرادتي: "تعالالي يابا ".

دخلوا حجرتي مفزوعين، وأخذني "ضاحي" في حضنه، فابتعدت خائفة، وطلبت "الفوالة" من زوجها وابنها مغادرة الحجرة، وأخذتني إلى حمامها المركون في نهاية البراح الواسع، وسخنت طستًا مملوءًا بمياه مملوءة بحبات البرغل والجنزبيل وأوراق النعناع، وحممتني كطفلة.

ألبستني ملابسها، وتساندتُ عليها حتى سريرها، وغطَّتني، وظلت تتمم بفمها بتعاويذ لم أفهمها حتى دخلت في نوبة نوم عميقة.

وجدت نفسي في الحلم نائمة على سرير في حجرة مظلمة شبيهة بالقبر، يعلوها سقف أشبه بالقبو العالي، مملوء بصور كل الذين عاشرتهم، يختفون ويظهرون عرايا بوجوههم

وعيونهم النشوى، يحاولون القفز من السقف ليعاقروني، وأنا أصرخ وأبعدهم، لكنهم يطيرون ويلتصقون بسقف القبو المغلق، ويسخرون من رفضي، ويتبولون على سريري بسعادة.

وحين دخل أبي القبر من فتحة لم أرها، هربوا جميعًا، جلس بجواري، وتمتم بتعاويذ غريبة حتى عدت للنوم مرة أخرى.

(٥)

تقبع في مدخل منزل "الفوالة" حجرتان واسعتان تطلان على ممر الحارة، وتتوسطهما طرقة ممتدة حتى باحة واسعة مفتوحة على السماء، مملوءة بالبط والإوز والفراخ وقدور الفول وأجولة الدقيق والأرز وحلل مملوءة بالطماطم والخيار والجرجير.

يختفي حمامها الصغير في ركن الباحة، وتتوسطه قعدة بلدي، وحنفية مياه، ينام في أحد أركانه باجور قديم وحلة كبيرة لزوم الاستحمام.

رغم انتشار الطيور في المنزل، لكني لم أشعر برائحة روثها، لقيام "الفوالة" قبل الفجر مع "ضاحى" و"الفوال" ليحبسوا الطيور في أعشاشها، ويكنسوا الباحة، ويغسلوا الأطباق والطماطم والخضر، ويقطعوها في الحلل الكبيرة، ويرفعوا قدرة الفول إلى العربة.

تترك المرأة "ضاحى" و"الفوال" يجران العربة إلى مكانهما بجوار الطابونة، وتظل بالمنزل تغير ملايات السرير، وتغسل ملابسهما الداخلية في طشت كبير، ثم تعلقها على أحبال وسط باحتها، فتشكل مع الطيور التي تجري وسط أعشاشها مشهدًا لم أتخيل وجوده وسط الحي.

عندما اشتد عودي، طلبتُ مساعدتها، فرحتْ كثيراً، وأحضرت الخضر لأغسلها وأجهزها، ساعدتها على إعداد العشاء، وجلست لأول مرة بجوارها على الطبلية التي تجمع "ضاحى" و"الفوال"، وعاتبت الله لعدم خلقي كابنة بين هذه الأسرة.

ابتهج "الفوال" و"ضاحى" بوجودي، وقامت "الفوالة" قبلهما مسرعة تجمع بقايا الطعام وتلقيها أمام طيورها، نادت علي باسمي: "يا نعمة.. يا نعمة"، وناولتني بعض البقايا لأرميها للقطط التي تتجمع أمام منزلها.

خرجت من الباب تائهة، ورميت بذهول الطعام للقطط التي أخافني مواؤها، وعدت إلى حجرتي في صمت.

عندما تيقظوا قبل الفجر صحوت بإرادتي وساعدتهم، ورغم أن وجودي أربكهم، لكنهم تمكنوا رغم قلة خبرتي من إنجاز كل شيء كالمعتاد، ورحل "ضاحى" ووالده إلى الشارع، وتركاني مع المرأة التي ملأ قلبها النور.

حين انتهينا من تجهيز الغداء، وتنظيف المنزل وغسل الملابس ونشرها، أعدَّت بنفسها كوبين من الشاي، وجلستْ بجواري تحكي عن والدها "الفوال" وأمها "الفوالة"، كأنهما ملوك الدنيا.

شعرت بامتلاكها للكون، وهي تحكي عن ليلتها الأولي بحضن "الفوال"، واستغرابها في البداية من العيش مع رجل في حجرة واحدة بمفردها، ومع مرور الوقت شعرت بأنها صاحبة المنزل والعربة وزبائن "الفوال" والدنيا كلها.

جاء "سعدون" و"ناجي المصراني" في المساء، واحتفلنا جميعًا بالتهام بطة "الفوالة" وأرزها الغارق في شوربة الحياة، الذي غذته بالعنبر والماورد.

ليلتها أمطرت السماء على الباحة، فخرجت مسرعة مع "ضاحى" و"الفوال" ليرتبوا أشياءهم الكثيرة، ويزيلوا آثار المطر.

تركوني مع "سعدون" و"ناجي" يتحدثان عن الدنيا الفانية التي لا يجوز الانشغال بأحداثها التي لا نعرف سببها.

صمتا فجأة وسألاني عن حالي، فأحنيت رأسي سعيدة شاكرة "الفوالة" التي تفانت في خدمتي، وأبلغاني بأن "الأعور" أحضر عمه "زخاري" وأولاد "عيسى الغنام" وزوجاته، واستولوا على منزلي، ويديرون الآن أكبر بيت للمتعة في الناحية.

حكيا تفاصيل كثيرة عن زواج "زينة" لـ"الأعور"، وصراعات أبناء "عيسى" وزوجاته بعد بيع الأغنام، وتفرغهم لإدارة البيت وجلب الزبائن، وافتتاحهم مكان المخزن بالدور الأرضي مقهى كبيراً كي يلعب زبائنهم طوال الليل ويخسروا كل ما لديهم على ترابيزة القمار.

حكيا عن "المخبرين" الذين يزورونهم ليأخذوا المعلوم، ويطمئنوا على حضور معظم الأهالي لمنزلهم ومقهاهم، وحين انتهيا من سرد كل التفاصيل، سألاني عن رغبتي في مقاضاتهم لاسترجاع البيت، والعودة لمكاني.

ودون تردد أو حزن، أكدت عدم رغبتي في الخروج من منزل "الفوال" أو ترك زوجته، فنادى "سعدون" بصوته الطيب على المرأة التي دخلت معتذرة عن غيابها، وعرضا عليها بصفتها أمي رغبتهما في تزويج "ضاحى" ابن "الفوال" بابنتها.

استأذنتْ منهما، وسحبتني من يدي ودخلت الحجرة الأخرى، وسألتني عن الإجابة، بكيت على صدرها، فزجرتني قائلة: "أنت ست الستات ولن أقبل طلبهم إلا إذا وافقت، يجب أن يعرفوا أنك بنت الفوالة التي أطعمتهم الشهد طوال السنين".

أخذتني بحضنها وبكت معي قائلة: "سأكون جدة لأبنائك، لا تخافي، ولا تيأسي من رحمة الله"، واستكملت: "لن أجبرك على شيء، وكما عاهدت الخياش قبل اختفائه، فأنت ابنتي التي لم ينجبها بطني".

حين ذكرتْ اسم والدي، انهمرتُ في البكاء، فتركتني بالحجرة، وسمعت صوتها قائلًا لـ"سعدون": "سبونا شوية يا عم الحاج، هنفكر ونرد عليكوا".

أغلقت باب المنزل وراءهما وهما يرددان بصوت مسموع: "على بركة الله.. على بركة الله يا أم نعمة".

(٦)

تركوني وحيدة بالحجرة وناموا، ولم أشعر بشيء سوي سيل من الدموع يغرق ملابسي، ورغم يقظتي، لكني شعرت بأنني أنام على سريري وسط القبو الذي يرمح في سمائه كل الذين عاشرتهم في الماضي.

كانوا يمسكون السكاكين والقيود محاولين إخافتي وتكتيفي ليعاقروني، لكني صرخت في صمت لإبعادهم عن جسدي، وعندما دخلِ أبي من فتحته المخفية أضاء الظلام بوجهه، وسحبني من سريري، وسار في الحجرة متخطياً حوائط القبو، وخرجنا إلى الشارع سالمين.

تركني وحدي على ربوة عالية، ورأيت الحي المملوء بالخرابات والمحاط بالنهر، والذي تنام على شواطئه أشجار التوت وحقول الموز، ويغرق سكونه في سبات عميق.

صَحَت "الفوالة" قبل الفجر، وجهزت مع ابنها وزوجها كل شيء، ولم أشعر بأصواتهم، وفوجئت بَدخولها حجرتي في الصباح حاملة أطباق الفول والبصل والبيض، وجلست بجواري كي نتناول إفطارنا.

طلبتُ منها الخروج إلى الشارع، ورغم انزعاجها من طلبي لابتلال الشوارع من مطر الأمس، لكنها لبت رغبتي، مؤكدة ضرورة عودتي إلى منزل أمي قبل حلول الليل.

أكدت أن حجرتي لن يدخلها أحد بعد اليوم سواها، وأن "ضاحى" و"الفوال" لن يطالعا وجهي. احتضنتها، ولبستُ عبايتي التي اشترتها من السوق، وخرجت وحيدة وسط الحواري الموحلة.

أقدامي تتعثر، وسط اندهاشي من عيون المارة، شهور طويلة لم أرَ نظرات عيونهم، أو أسمع أصواتهم.

وحينما شاهدت أحد الكلاب يقف على الناصية، انقبضت روحي، لكن صورة والدي التي رافقتني، دعتني لمواصلة سيري غير عابئة بنباحه.

مررت من الحواري إلى الشوارع، واخترقت الميدان، وألقيت نظرة طويلة على الخرابة، وسمعت صوت أجراس الكنيسة، ونظرت في بهو الجامع المفتوح.

سرت من أمام الطابونة، وسلمت على عمي "سعدون" فابتسم مبتهجًا، واستوقفني وناولني رغيفًا مملوءاً بالطعمية، وأصر على تناوله أمامه، عرّفني على "عجينة" ابنة "الفران" الذي مات مع "العجان" يوم حرق الضريح.

ابتهجت الصبية لرؤيتي، وحكت بتلقائية عن طلاقها من "الشيخ عليش"، والعودة إلى ممارسة مهنة والدها لتعول أمها وتساعدها على خدمة جدتها وجدها العاجزين.

نظرت إلى عين "سعدون" قبل وداعه، وسألته عن والدي و"وفاء"، فنصحني بنسيان الماضي، مؤكدًا اختفاءهما مع "مهيطل" و"المهبولة" يوم حرق الضريح.

مررت على "الفوال" الذي فتح فمه سعيدًا برؤيتي، وأحضر "ضاحى" كرسيًا صغيراً لأجلس بجوارهما، ناولني الرجل سندوتش بطاطس بالبيض، وأصر على تناوله أمامه، قائلًا ببهجة: "هتاكليه لحسن أمك الفوالة مدخلناش البيت".

نظرت إلى عين "ضاحى" الذي اقترب مني، ولأول مرة أسمع صوته قائلًا: "عاملة إيه دلوقتى؟". لم أرد، فاستكمل ببهجة وهو يضع الأطباق أمام أحد زبائنه: "فاكر يابا وهي صغيرة مكتش بتتنقل من معانا، أول متشفنا من البلكونة تنزل وتقعد تناكف فينا لحد منمشي؟!".

رد "الفوال" بسعادة على ابنه قائلًا: "آهي رجعت يا عم زي زمان، وقعدت جنبنا بس من غير شقاوة".

استأذنتهما واستكملت سيري، فسألني الرجل على غير إرادته:

على فين يا بنتي؟!

مشوار يا حاج وراجعة على طول.

"الفوالة" مستنياكي متكسريش بخاطرها.

متخافش يا عمي، مسافة السكة.

يعني هتتعشي معانا؟

إن شاء الله.

اقترب "ضاحى" من عيوني، ونظر بصمت داخلي قائلًا: "هستناكي متتأخريش".

دخلت السوق، ومررت من تحت شقة "وفاء"، وشاهدت النساء اللائي يبعن ويشترين، واحترت من البهجة التي تملأ عيونهن.

الجميع نظر ناحيتي في سعادة، دون أن ينادوي باسمي، لكني شعرت بينهم بالونس، وحين شاهدت "الشيخ عليش" يرمق جسدي، كدت أقع في الطين، لكن وجه والدي الذي رافقني، أعانني على مقاومة شره، وتجاهل صوته.

ابتهج "ناجي المصراني" بمروري من أمام دكانه، أخرج الكرسي الوحيد لديه وأصر على تناولي الشاي معه، حكى عن وجيعته بعد عودة أولاده الثلاثة الذين اشتروا عمارة كبيرة على الشاطئ، وفتحوا محلات للصاغة متجاهلين عجزه.

حاولوا إجباره على إغلاق محل الحلاقة، وترك شقته القديمة، وحينما رفض عرضهم، تركوه يحيا وحيدًا، وعاشوا منعمين وسط أولادهم وزوجاتهم.

بكى الرجل أمامي، وواسيته كابنته، وشكرته على الشاي، واستكملت سيري وسط السوق.

اقترب مني صاحب مطعم الكشري، وحاول ملاطفتي، فابتعدت عنه، فأطلق ضحكة ساخرة واستطرد: "براحتك يا جميل بكرة تقع في حجري زي الطاجن".

رأيت "محمد الزبال" يتعجب لظهوري مرةً ثانية، اقترب من وجهي، وحين تذكرت وجه والدي ابتعد عني مسرعًا، تجاهلني وسب الدين للدنيا والزبالة والناس الذين لا يردون المعروف.

سارت أقدامي حتى شاطئ النهر، وجلست وحيدة أستمتع بالشمس التي غمرت الدنيا، فتوقف الصقيع، وجفف الطين حولي، ولم أشعر بوجود كلب البحر الذي كانت أمي تحكي عن خروجه في الليل ليعاشر النساء اللائي هجرهن أزواجهن، أو ماتوا في الغربة.

وعندما شاهدتها تغرب عن عيني عند نهاية الدنيا، تذكرت "الفوالة"، فقمت مسرعة إلى منزلها.

استقبلتني بفرح، وكادت تطلق زغرودة في وجهي، دخلتِ حجرتي وخلعت عبايتي، وعدت سريعًا لأساعدها في إعداد العشاء، أعطتني طبقًا مملوءًا بالفلفل والطماطم، قائلة ببهجة كعادتها: "جهزي بس أنت البتنجان يا معدلة".

تعجبني سلاطة لسانها الذي ينطق بكل الجمل حتى المستهجنة، بلطف وحب.

دخل "الفوال" و"ضاحى" من الباب، وحين رأيا وجهي كاد قلبهما ينفطر من السعادة، نادى على "الفوالة" فردت بتلقائية: "إيه اللي أخرك يابن جمالات؟! مقدرتش ترجع قبل ما تروح القهوة.. منا عارفة".

اجتمعنا حول الطبلية، وأكلنا عدسها وبصلها اللذين دفآ قلوبنا، واستأذن "ضاحي" ووالده ليخرجا إلى الهواء، وتركاني معها لنستكمل تجهيز يوم الغد، كانت السماء المفتوحة على الباحة تغطي جسد "الفوالة" كأجمل امرأة منعمة في الرضا.

تراقصنا في صمت ونحن ننقع الفول، ونهش الطيور داخل أعشاشها، جلستُ بجوارها على طست الغسيل، وقلدتها، فانفرجت أساريرها قائلة: "هعلمك كل حاجة، مش هيبقى فيه واحدة زيك في الحي كله".

فردتُ الملابس على الحبل، فاقتربت مني قائلة بصوت خافت: "متعلقيش هدومي الداخلية أنا وأنت إلا في الآخر، علشان ميشفهمش الكلاب، أنت فاهماني طبعًا يا بنت الفوالة؟!".

أصرت في هذا اليوم على أن تحممني بنفسها، دعكت جسدي بالماء المغلي والصابون، وألبستني ملابسي الداخلية، وخبأتني في الحجرة.

أحضرت منقد النار، ورشت عليه البخور، ودارت حول رأسي ترقيني من عيون الغادر والمارق وابن الحرام، دعت بصوت مسموع خالق الكون أن يحمي ظهري، ويبعد عني كلاب السكك.

تمت

الوراق

٢٠١٥